CD

CD

واحد مکرر نیم

کتابخانه مجلس شورای اسلامی

مؤسسهٔ ۱۳۰۲

اسم کتاب طوفان استبداد

مؤلف کوهکبر

موضوع تألیف انتقاد ملی = استبداد

۲
۹۱ ک

شمارهٔ دفتر ۱۷۸۹

کتابخانه مجلس شورای اسلامی
۵
۴۴۳

ف ١

طبائع الاستبداد

و

مصارع الاستعباد

وهي

كلمات حق وصيحة في واد ان ذهبت اليوم مع الريح
لقد تذهب غداً بالاوتاد

محررها

هو الرحالة . ك

على نفقة

صاحب المكتبة الشرقية بمصر

حقوق الطبع محفوظة

ثمنه خمسة غروش صاغاً

(مطبعة الدستور العثماني بشارع محمد علي بمصر)

ناشر كتابي

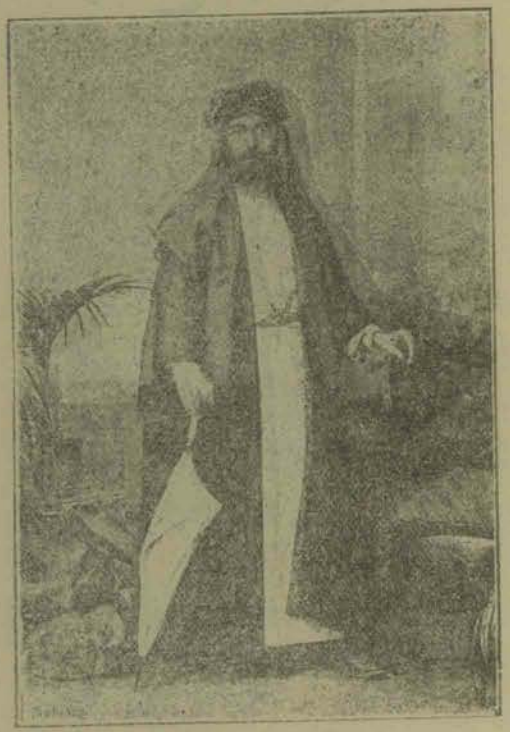

السيد عبد الرحمن الكواكبي

بملابسه العربية

(ولد سنة ١٢٦٥ هـ وتوفي سنة ١٣٢٠ هـ)

وطبائع الاستبداد

أم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى سائر اخوانه المرسلين وعلى اتباعهم هداة الامم الى الحق المبين . وبعد فأقول وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان الراجي اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال . انني في سنة ثماني عشر وثلثمائة والف وجدت زائراً في مصر على عهد عزيزها ومعزها حضرة سمي عم النبي العباس الثاني الناشر لواء الحرية على اكناف ملكه فنشرت في بعض الصحف الغراء ابحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد منها ما درسته ومنها ما اقتبسته غير قاصد بها ظالماً بعينه ولا حكومة مخصصة انما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون انهم هم المتسببون لما هم فيه

فلا يعتبون على الاغيار ولا على الاقدار وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات. ثم كلفني بعض الاعزاء لجمع شمل تلك الابحاث تعميماً للفائدة فأضفت اليها بعض زيادات وحولتها الى هيئة هذا الكتاب وجعلته هدية مني للناشئة العربية المباركة الابية المعقودة آمال الامة بيمن نواصيهم ولا غرو فلا شباب الا بالشباب والله ولي المهتدين

مقدمة

لا خفاء ان السياسة علم واسع جداً ينقسم الى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى وقلما يوجد انسان يحيط بهذا العلم كما انه قلما يوجد انسان لا يتحكك فيه

وقد وجد في كل الامم المتمدنة علماء سياسيون تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطراداً في مدونات التاريخ أو الاخلاق أو الادب أو الحقوق. ولا تعرف للاقدمين كتب مخصوصة في السياسة لغير الرومانيين الجمهوريين وانما لبعضهم مؤلفات سياسية اخلاقية ككليلة ودمنه ورسائل غوريغوريوس اليوناني ومحررات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج

واما في القرون المتوسطة فلا تؤثر مؤلفات في هذا الفن لغير علماء الاسلام فهم ألفوا فيه ممزوجاً بالاخلاق كالرازي والطوسي والغزالي والعلائي وهي طريقة الفرس وممزوجاً بالادب كالمعري والمتنبي وهي طريقة العرب وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطه وهي طريقة المغاربة

اما المتأخرون من أهل أوروبا فقد توسعوا في هذا العلم وألفوا فيه كثيراً وأشبعوه تفصيلاً حتى انهم افردوا بعض مباحثه في التأليف بمجلدات ضخمة

وقد ميزوا مباحثه الى سياسة عمومية وسياسة خارجية وسياسة داخلية وسياسية ادارية وسياسة اقتصادية وسياسية حقوقية الخ. وقسموا كلاً منها الى أبواب شتى وأصول وفروع

واما المتأخرون من الشرقيين فقد وجد من الترك كثيرون ألفوا في اكثر مباحثه تآليف مستقلة وممزوجة مثل احمد جودت باشا وكمال بك وسليمان باشا وحسن فهمي باشا

واما العرب فقليلون ومقلون والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم رفاعه بك وخير الدين باشا التونسي واحمد فارس وسليم البستاني والمبعوث المدني

ولكن يظهر لنا الآن ان المحررين السياسيين من العرب قد كثروا بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في مواضيع كثيرة. ولهذا لاح لهذا العاجز ان اذكر حضراتهم على لسان الجرائد العربية بموضوع هو أهم المباحث السياسية وقل من طرق بابه منهم الى الآن فادعوهم الى ميدان المسابقة

في خير خدمة ينيرون بها أفكار اخوانهم الشرقيين وينبهونهم لا سيما العرب منهم لما هم عنه غافلون. فيفيدونهم بالبحث والتعليل وضرب الامثال والتحليل ما هو حقيقة (داء الشرق ودوائه)

ونظراً الى ان مبنى علم السياسة على تعريفه بانه هو « ادارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة » يكون بالطبع أول مباحث السياسة وأهمها بحث « الاستبداد » أي التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى

واني أرى ان المتكلم في هذا البحث عليه ان يلاحظ تعريف وتفصيل « ما هو الاستبداد. ما سببه. ما اعراضه. ما تشخيصه. ما سيره. ما انذاره. ما دواؤه » وكل موضوع من ذلك يتحمل تفصيلاً كثيراً وبعضه يتحمل سفراً كبيراً

وهذه المباحث من حيث مجموعها تنطوي على مسائل كثيرة أسرد منها بعض الامهات وهي. ما طبيعة الاستبداد — لماذا يكون المستبد شديد الخوف — لماذا يستولي الجبن على رعية المستبد — ما تأثير الاستبداد على الدين — على العلم — على المجد — على المال — على الاخلاق — على الترقي — على

التربية — من هم أعوان المستبد — هل يتحمل الاستبداد — كيف يمكن التخلص من الاستبداد — بماذا ينبغي استبدال الاستبداد — ما هي طبائع الاستبداد

ثم اني قبل الخوض في هذه المسائل أخلص النتائج التي تستقر عندها أفكار المتكلمين فيها وهي نتائج متحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف المشارب والانظار في الباحثين

فيقول المادي . الداء القوة والدواء المقاومة — ويقول السياسي الداء استعباد البرية والدواء استرداد الحرية — ويقول الحكيم الداء القدرة على الاعتساف والدواء الاقتدار على الاستنصاف — ويقول الحقوقي الداء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغليب الشريعة على السلطة — ويقول الرباني الداء مشاركة الله في الجبروت والدواء توحيد الله حقاً

هذه أقوال أهل النظر واما أهل العزائم — فيقول الابي. الداء مد الرقاب للسلاسل والدواء الشموخ عن الذل — ويقول الشهم. الداء التعالي على الناس باطلاً والدواء تزليل المتكبرين — ويقول المتين . الداء وجود الرؤساء بلا زمام والداء ربطهم بالقيود الثقال — ويقول المفادي الداء حب الحياة والدواء حب الموت

ما هو الاستبداد

الاستبداد لغة هو اقتصار المرء على رأي نفسه فيما تنبغي الاستشارة فيه

يراد بالاستبداد عند اطلاقه استبداد الحكومات خاصة لانها هي أقوى العوامل التي جعلت الانسان أشقى ذوي الحياة واما تحكم رؤساء بعض الاديان وبعض العائلات وبعض الاصناف فيوصف بالاستبداد مجازاً أو مع الاضافة

وفي اصطلاح السياسيين هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بلا خوف تبعة

وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى فيستعملون في مقام كلمة (استبداد) كلمات استعباد واعتساف وتسلط وتحكم. في مقابلتها كلمات شرع مصون . وحقوق محترمة وحس مشترك . وحياة طيبة

ويستعملون في مقام صفة (مستبد) كلمات حاكم بامره وحاكم مطلق وظالم وجبار وفي مقابلة حكومة مستبدة كلمات عادلة ومسئولة ومقيدة ودستورية

ويستعملون في مقام صفة (مستبد عليهم) كلمات أسرى واذلاء ومستصغرين ومبتئسين [١] وفي مقابلتها محتسبون وأباءة واحرار واحياء

هذا تعريف الاستبداد باسلوب ذكر المرادفات والمقابلات وأما تعريفه بالوصف فهو ان الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين

ومنشأ الاستبداد إما هو من كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة أو على أمثلة أو على ارادة الامة وهذه حالة الحكومات المطلقة . واما من كونها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها ابطال قوة القيد بما تهوى وهذه حالة أكثر الحكومات التي تسمي نفسها المقيدة

واشكال الحكومة المستبدة كثيرة ليس هذا البحث

(١) الاستئبات أو التئبث من اصطلاحات سواس الافرنج يريدون به الحياة الشبيهة بحياة النبات

محل تفصيلها . ويكفي هنا الاشارة الى ان صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة أو الوراثة تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيد الوارث أو المنتخب متى كان غير محاسب . وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخباً لان الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وانما قد يعدله نوعاً وقد يكون أحكم وأضر من استبداد الفرد . ويشمل أيضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ لان ذلك أيضاً لا يرفع الاستبداد ولا يخففه ما لم يكن المنفذون مسئولين لدى المشرعين وهؤلاء مسئولون لدى الامة التي تعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب

وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها كما جرى في صدر الاسلام فيما تقم على عثمان بن عفان رضي الله عنه وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودريفوس

ومن الامور المقررة انه ما من حكومة عادلة تأمن

المسئولية والمؤاخذة بسبب من أسباب غفلة الامة أو اغفالها لها الا وتسارع الى التلبس بصفة الاستبداد وبعد ان تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمتها شيء من القوتين الهائلتين المهولتين جهالة الامة والجنود المنظمة

ولا يعهد في تاريخ حكومة من الحكومات المدنية استمرار حكومة مسئولة مدة اكثر من نصف قرن الى غاية قرن ونصف . وما شذّ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة في انكلترا والسبب يقظة الانكليز الذين لا يسكرهم انتصار ولا يخملهم انكسار . وهذه حضرة الملكة فيكتوريا لو تسنى لها الاستبداد الآن لغنمته ولو لاجل عشرة أيام من بقية عمرها . ولكن هيهات ان تظفر بغرة من قومها تستلم فيها زمام الجيش

اما الحكومات البدوية التي تتألف رعيتها كلها أو اكثرها من عشائر يقطنون البادية يسهل عليهم الرحيل والتفرق متى مست حكومتهم حريتهم وسامتهم ضيماً ولم يقووا على الاستنصاف فهذه الحكومات قلما اندفعت الى الاستبداد

وأقرب مثال لذلك أهل جزيرة العرب فانهم لا يكادون

يعرفون الاستبداد من قبل عهد ملوك تبع وحمير وغسان الى الآن الاّ فترات قليلة

وقد تكلم الحكماء لا سيما المتأخرون في وصف الاستبداد ودوائه بجمل بليغة بديعة تصوّر في الاذهان شقاء الانسان كأنها تقول له هذا عدوك فانظر ماذا تصنع . ومن هذه الجمل قولهم

المستبد يتحكم في شؤن الناس بارادته لا بارادتهم ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم ويعلم من نفسه انه الغاصب المتعدي فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته

المستبد عدو الحق عدو الحرية وقاتلها والحق أبو البشر والحرية أمهم والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئاً والعلماء هم اخوتهم الراشدون ان أيقظوهم هبوا وان دعوهم لبوا

المستبد يتجاوز الحد لانه لا يرى حاجزاً فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظلم كما قيل الاستعداد للحرب يمنع الحرب

المستبد انسان مستعد بالفطرة للخير والشر فعلى الرعية

ان تكون مستعدة لان تعرف ما هو الخير وما هو الشر . مستعدة لان تقول لا أريد الشر . مستعدة لان تتبع القول بالعمل والقول الذي ليس وراءه فعل هو موجة في الهواء على ان مجرد الاستعداد للفعل فعل يكفي شرّ الاستبداد

المستبد انسان والانسان اكثر ما يألف الغنم والكلاب فالمستبد يود ان تكون رعيته كالغنم درّاً وطاعة وكالكلاب تذللاً وتملقاً وعلى الرعية ان تكون كالخيل ان خدمت خدمت وان ضربت شرست بل عليها ان تعرف مقامها هل خلقت خادمة للمستبد أم هي جاءت به ليخدمها فاستخدمها . والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها لتأمن من بطشه فان شمخ هزت به الزمام وان صال ربطته . وفي هذا المقدار كفاية لمعرفة ما هو الاستبداد بالاجمال والمباحث الآتية كافلة بالتفصيل

الاستبداد والدين

ورد في المقدمة والتعريف بعض ايضاح للمراد من الاستبداد . على ان معرفة طبائع الاستبداد اجمالاً لا تتم الا باستيفاء الكلام على المباحث التي أشرت اليها ومنها بحث تأثير الاستبداد على الدين . واني تخيرت ان أتكلم في هذه المواضيع اجمالاً واقتضاباً على اسلوب شبيه بالخطابة فأقول

قد تضافرت آراء اكثر المحررين السياسيين من الافرنج على ان الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني والبعض القليل منهم يقول ان لم يكن هناك توليد فلا شك انهما اخوان أو صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الانسان . والمشاكلة بينهما ظاهرة من أن أحدهما حاكم في عالم القلوب والآخر متحكم في مملكة الاجسام

والفريقان مصيبان في حكمهم بالنظر الى أساطير الاولين والقسم التاريخي من التوراة والرسائل المضافة الى الانجيل . ومخطئون مطلقاً في حق الأقسام التعليمية منهما كما هم مخطئون

في نظرهم ان القرآن جاء باستبداد مؤيد للاستبداد السياسي أو مؤيد به. ولعلهم يعذرون اذا قالوا نحن لا ندرك دقائق القرآن نظراً لخفائها علينا في طي اشاراته وبلاغته . وانما نبني نتيجتنا على مقدمات ما نشاهد عليه المسلمين اليوم من استعانة مستبديهم بالدين

يقول هؤلاء المحررون ان التعاليم الدينية ومنها الكتب السماوية تدعو البشر الى خشية قوة عظيمة هائلة لا تدرك كنهها العقول تتهدد الانسان بكل مصيبة في الحياة وعذاب مديد أو خالد بعد الممات تهديداً ترتعد منه الفرائص فتخور القوى وتتذهل منه العقول فتستسلم للخبل والاوهام . ثم تفتح هذه التعاليم أبواباً للنجاة من تلك المخاوف عليها حجاب من البشر هم الاحبار والقسس والمشايخ . ودخوليتها التعظيم الراتب بالقلب والقالب أي تقديم جزية احترام مع ذلة اعتراف أو ثمن غفران أو كفالة الرزق من بيت المال لاولئك الحجاب. الذين بعضهم يحجزون حتى الارواح من لقاء ربها مالم يأخذوا عنها رسوم المرور الى القبور وفدية الخلاص من الاعراف

ويقولون ان المستبدين من السياسيين يبنون استبدادهم

على أساس من هذا القبيل أيضاً لانهم يسترهبون الناس بالتعالي الشخصي والتشامخ الحسي ويذللونهم بالقهر والقوة وسلب الاموال حتى يجعلوهم خاضعين لهم عاملين لاجلهم كأنهم خلقوا من جملة الانعام نصيبهم من الحياة ما يقتضيه حفظ النوع فقط

ويرون ان هذا التشاكل في بناء ونتائج الاستبدادين الديني والسياسي جعلهما في مثل فرنسا خارج باريس مشتركين في العمل كأنهما يدان متعاونتان وجعلهما في مثل روسيا مشتبكين في الوظيفة كأنهما القلم والقرطاس اذا استعملا في تسجيل الشقاء على الناس

ويقررون ان هذا التشاكل بين القوتين ينجر بعوام البشر وهم السواد الاعظم الى التباس الاله المعبود والجبار عليهم واختلاطهما في مضايق اذهانهم من حيث التشابه في استحقاق التعظيم والرفعة عن السؤال والمؤاخذة على الافعال . بناءً عليه لا يرون لانفسهم حقاً في مراقبة المستبد

وبعبارة أخرى يجد العوام معبودهم وجبارهم مشتركين في كثير من الحالات والاسماء والصفات وهم هم ليس من

شأنهم ان يفرقوا مثلاً بين الفعال المطلق والحاكم بأمره وبين (لا يسأل عما يفعل) و « غير مسئول » وبين « المنعم » و « ولي النعم » وبين « جل شأنه » و « جليل الشأن » بناء عليه يعظمون الجبابرة تعظيمهم لله

وهذه الحال هي التي سهلت في الامم الغابرة المنحطة دعوى بعض المستبدين الالوهية على مراتب مختلفة حسب استعداد اذهان الرعية حتى يقال انه ما من مستبد سياسي الا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله أو تعطيه مقام ذي علاقة مع الله . ولا أقل من ان يتخذ بطانة من أهل الدين المستبدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله

ويعلمون ان قيام المستبدين من أمثال (أبناء داود) و (قسطنطين) في تأييد نشر الدين بين رعاياهم وانتصار مثل (فيليب الثاني) الاسباني و (هانري الثامن) الانكليزي للدين حتى بتشكيل مجالس انكيزسيون وكالحاكم الفاطمي والسلاطين الاعاجم المنتصرين لغلاة الصوفية والبانين التكايا لم يكن ذلك كله الا بقصد الاستعانة بالدين أو باهل الدين على ظلم المساكين

ويحكمون بان بين الاستبدادين السياسي والديني مقارنة

لا تنفك متى وجد أحدهما في أمة جر الآخر اليه أو متى زال زال رفيقه . وان ضعف أي صالح أحدهما صلح الثاني . وشواهد ذلك كثيرة جداً لا يخلو منها زمان ولا مكان وكلها تبرهن على ان الدين أقوى تأثيراً من السياسة ويمثلون بالسكون فان البروتستانية أثرت في الاصلاح السياسي أكثر من تأثير الحرية السياسية في الاصلاح عند الكاثوليك

والحاصل ان كل المدققين السياسيين يرون ان السياسة والدين يمشيان متكاتفين ويعتبرون ان أصلاح الدين أسهل منالاً وأقوى وأقرب طريقاً للاصلاح السياسي

ويرون ان أول من سهل هذا المسلك حكماء اليونان حيث تحيلوا على ملوكهم المستبدين في حملهم على قبول الاشتراك في السياسة باحيائهم عقيدة الاشتراك في الالوهية أخذوها عن الاشوريين ومزجوها باساطير المصريين بصورة تخصيص العدالة باله والحرب باله والبحار باله والامطار باله الى غير ذلك من التوزيع وجعلوا لاله الآلهة حق النظارة عليهم وحق الترجيح عند وقوع الاختلاف بينهم

وبعد تمكن هذه العقيدة في الاذهان بما البست من

سحر البيان سهل على أولئك الحكماء دفعهم الناس الى مطالبة جبابرتهم بالنزول من مقام الانفراد وبأن تكون ادارة الارض كادارة السماء فانصاع ملوكهم لذلك مكرهين . وهذه هي الوسيلة العظمى التي مكنت اليونان أخيراً من اقامة جمهوريات أثيناواسبارطه . وكذلك فعل الرومان . وهذا الاصل لم يزل المثال القديم لاصول توزيع الادارة في الحكومات الملكية والجمهوريات على أنواعها الى هذا العهد

انما هذه الوسيلة أي التشريك فضلاً عن كونها باطلة في ذاتها نتج عنها أخيراً رد فعل أضر كثيراً. وذلك انها فتحت للمشعوذين من سائر الطبقات باباً واسعاً لدعوى شيء من خصائص الالوهية كالصفات القدسية والتصرفات الروحية . وكان قبل ذلك لا يتهجم على مثلها غير أفراد من الجبابرة وللاءمة هذه المفسدة لطباع البشر من وجوه كثيرة ليس بحثنا هذا محلها انتشرت وعمت وجندت جيشاً عرمرماً يخدم المستبدين

وقد جاءت التوراة بالنشاط والنظام رافعة عقيدة التشريك في اسباط بني اسرائيل مستبدلة مثلاً أسماء الالهة بالملائكة

ولكن لم يرضَ بعض ملوك بني اسرائيل بالتوحيد فافسدوه ثم جاء الانجيل بالدعة والحلم مؤيداً أيضاً ناموس التوحيد ولكن لم يقوَ دعاته الاولون على تفهيم تلك الاقوام المنحطة الذين بادروا لقبول النصرانية قبل الامم المترقية ان الابوة والبنوة صفتان مجازيتان يعبر بهما عن معنى لا يقبله العقل الا تسليماً كمسألة القدر في الاسلامية بل تلقوها منهم بمعنى توالدحقيقي لانهم كانوا قد ألفوا الاعتقاد في بعض جبابرتهم انهم ابناء الله فكبر عليهم ان يعتقدوا في عيسى عليه السلام صفة هي دون مقام أولئك الملوك

ثم ان النصرانية ما لبثت ان تلبست ثوباً غير ثوبها كما هو شأن سائر الاديان التي سلفتها فتوسعت برسائل بولس ونحوها وصارت تعظم رجال الكهنوت الى درجة اعتقاد النيابة والعصمة وقوة التشريع مما رفض أكثره أخيراً البروتستان أي الراجعون في الاحكام لاصل الانجيل

ثم جاء الاسلام بالحكمة والعزم هادماً للتشريك بالكلية ومحكماً لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديموقراطية والاريستوقراطية فأسس التوحيد . وأظهر للوجود حكومة

كحكومة الخلفاء الراشدين التي لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر حتى ولم يخلفهم فيها بين المسلمين أنفسهم خلف الا بعض شواذ كعمر بن عبد العزيز والمهتدي العباسي ونور الدين الشهيد

فان هؤلاء الخلفاء الراشدين فهموا معنى القرآن وعملوا به واتخذوه اماماً فانشأوا حكومة قضت بالتساوي حتى بينهم انفسهم وبين فقراء الامة في نعيم الحياة وشظفها وأحدثوا في المسلمين عواطف اخوة وروابط هيئة اجتماعية وحالات معيشة اشتراكية لا تكاد توجد بين اشقاء يعيشون باعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة

وهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم امانة الاستبداد واحياء العدل والتساوي حتى في القصص منه . ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبا من عرب تبع تخاطب أشراف قومها « يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والامر اليك فانظري ماذا تأمرين . قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون »

فهذه القصة تعلم كيف ينبغي ان يستشير الملوك الملأ اي

أشراف الرعية وان لا يقطعوا أمراً الا برأيهم وان تحفظ القوة والبأس في يد الرعية وان يخصص الملوك بالتنفيذ ويكرموا بنسبة الامر اليهم وتعلن شأن الملوك المستبدين واستحقاقهم للمؤاخذة والتقبيح

ومن هذا الباب أيضاً ما ورد في قصة موسى عليه السلام مع فرعون في قوله تعالى « وقال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون » أي قال الاشراف بعضهم لبعض ماذا رأيكم (قالوا) خطاباً لفرعون وهو قرارهم « ارجه واخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم » ثم وصف مذاكرتهم بقوله تعالى « فتنازعوا أمرهم » أي رأيهم « بينهم وأسروا النجوى » أي أفضت مذاكرتهم العلنية الى النزاع فأجروا مذاكرة سرية طبق ما يجري الى الآن في مجالس الشورى العمومية

بناءً عليه لا مجال لرمي الاسلامية بالاستبداد بعد امثال هذه الآيات البينات المفسرات للمراد من قوله تعالى « وشاورهم في الامر » أي في الشأن وكذلك قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » أي شأنهم وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله

وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » أي أصحاب الشأن منكم وهم العلماء والرؤساء على ما اتفق عليه اكثر المفسرين

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى « وما أمر فرعون » أي ما شأنه . وحديث « أميري من الملائكة جبريل » أي مشاوري

وقد ظهر من هذا ان الاسلامية مؤسسة على أصول الادارة الديموقراطية أي العمومية والشورى الاريستوقراطية أي شورى الاشراف . وقد مضى عهد النبي عليه السلام وعهد الخلفاء الراشدين على هذه الاصول بأتم وأكمل صورها خصوصاً وانه لا يوجد في الاسلامية نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل اقامة الدين . هذا الدين الحرّ السهل السمح الذي رفع الاصر والأغلال وأباد الميزة والاستبداد . الدين الذي ظلمه الجاهلون فهجروا حكمة القرآن ودفنوها في قبور الهوان . الدين الذي فقد الانصار والابرار والحكماء الاخيار فسطا عليه المستبدون واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الامة شيعاً وجعلوه آلة لاهوائهم فضيعوه وضيعوا أهله بالتفريع والتوسيع والتشديد والتشويش وادخال ما ليس منه فيه كما فعل أصحاب الاديان السائرة حتى جعلوه ديناً لا يقوى أحد

ممن يتوهم ان كل ما دونوه هو منه على القيام بواجباته وآدابه ومزيداته التي صارت تشتبه مراتبها على العوام والخواص

وبذلك انفتح على الامة باب التلوم على النفس واعتقاد التقصير المطلق وان لا نجاة ولا مخرج ولا امكان لمحاسبة النفس . وهذه الحال تصغر النفس وتخفت الصوت وتمنع الجسارة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر المنوط بهما قيام الدين وقيام النظام والعدل

وهذا الاهمال للمراقبة والسيطرة والمؤاخذة والسؤال أوسع لامراء الاسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود . وبهذا وذاك ظهر حكم حديث (هلك المتنطعون) أي المتشددون في الدين وحديث (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملنّ الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب) والله الملهم للصواب

وقد جمع بعضهم جملة مما اقتبسه وأخذه المسلمون عن غيرهم وليس هو من دينهم فقال

(اقتبسوا) مقام البابوية وتمثيله . واحترام الاعاظم احترام عبادة . وطاعة الكبراء على العميا ء (وضاهوا) مقامات البطارقة

والكردينالية والشهداء واسقفية كل بلد (وحاكو) مظاهر القديسين وعجائبهم . والدعاة المبشرين وصبرهم . والرهبنات ورؤسائها . وحالة الاديرة وبادريتها . والرهبنة أي التظاهر بالفقر ورسومها . والحمية وتوقيتها . (وقلدوا) رجال الكهنوت وفي مراتبهم وتميزهم في ألبستهم وشعورهم (وشاكلوا) مراسم الكنائس وزيتها والبيع واحتفالاتها . والترنحات ووزنها . والترنمات وأصولها واقامة الكنائس على القبور . وشد الرحال لزيارتها . والاسراج عليها . والخضوع لديها . وتعليق الآمال بسكانها (وأخذوا) التبرك بالآثار كالقدح والحربة والدستار من احترام الذخيرة وقدسية العكاز . وكذلك امرار اليد على الصدر عند ذكر الصالحين من امرارها على الصدر لاشارة التصليب . (وانتزعوا) الحقيقة من السر . ووحدة الوجود من الحلول . والخلافة من الرسم . والسقيا من تناول القربان . والمولد من الميلاد . وحفلته من الاعياد ورفع الاعلام من حمل الصلبان . وتعليق ألواح الاسماء المصدرة بالنداء على الجدران من تعليق الصور والتماثيل والاستفاضة والمراقبة من التوجه بالقلوب انحناء امام الاصنام . (ومنعوا) الاستهداء

من نصوص الكتاب والسنة من حظر الكهنة الكاثوليك التفهم من الانجيل على غيرهم . وسد اليهود باب الاخذ من التوراة وتمسكهم بالتلمود . (وجاؤا) من المجوسية باستطلاع الغيب من الفلك . وبخشية أوضاع الكواكب وباتخاذ أشكالها شعاراً وباحترام النار ومواقدها . (ولفقوا) من الاساطير والاسرائيليات أنواعاً من القربات وعلوماً سموها لدنيات

ومن تأمل في هذه المقتبسات يجد اكثرها أمهات للاستبداد وسلاسل للاستعباد وهكذا تفسد الاديان ويشقى الانسان ولا حول ولا قوة الا بالله

وكذلك يقال عن مبتدعي النصارى من أن اكثر ما اعتبره المتأخرون منهم من الشعائر الدينية حتى مشكلة التثليث لا أصل له فيما ورد عن نفس المسيح عليه السلام انما هو مزيدات وترتيبات قليلها مبتدع وكثيرها متبع . وقد اكتشف العلماء الآثاريون من الصحف والصفائح التي وجدت في نواويس المصريين الاقدمين على مآخذ اكثرها . وكذلك وجدوا لمزيدات التلمود وبدع الاحبار أصولاً في الاساطير والآثار والالواح الاشورية . وترقوا في التطبيق والتدقيق الى ان

وجدوا معظم الخرافات المضافة الى أصول عامة الاديان في الشرق الادنى مقتبسة من الوضعيات المنسوبة لحكماء الشرق الاقصى

والخلاصة ان البدع التي شوشت الايمان وشوهت الاديان تكاد كلها تتسلسل بعضها من بعض وترمي جميعها الى غرض واحد هو المراد ألا وهو الاستبداد

والناظر المدقق في تاريخ الاسلام يجد للمستبدين من الخلفاء والملوك الاولين والعلماء المنافقين أفعالاً مريعة في اطفاء نور العلم ويجد انهم طالما أرادوا ان يطفئوا نور الله ولكن أبى الله الا ان يتم نوره. فحفظ للمسلمين كتابه الكريم الذي هو شمس العلوم وكنز الحكم من أن تمسه يد التحريف وهي احدى معجزاته لانه قال فيه (انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون). فما مسه المنافقون الا بالتأويل وهذا أيضاً من معجزاته لانه أخبر عن ذلك في قوله (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة (وابتغاء تأويله)

واني أمثل للمطالعين ما فعله الاستبداد في العلم والاسلام بما حجر على العلماء الحكماء من أن يفسروا قسمي الآلاء

والاخلاق من القرآن تفسيراً مدققاً لانهم كانوا يخافون مخالفة رأي بعض السلف القاصرين في العلم فيكفرون فيقتلون وهذه مسألة اعجاز القرآن وهي أهم مسئلة في الدين لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث واقتصروا على ما قاله بعض السلف انها هي فصاحته وبلاغته وأخباره عن ان الروم من بعد غلبهم سيغلبون

مع انه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما أطلق لاهل التأويل والخرافات لرأوا في ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الاعجاز . لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن اعجازه بصدق قوله « ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » برهان عيان لا مجرد تسليم وايمان

ومثال ذلك ان العلم كشف في هذه القرون الاخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا. والمدقق في القرآن يجد اكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء الا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بانه كلام رب لا يعلم الغيب سواه ومن ذلك انهم قد كشفوا ان مادة الكربون هي الاثير وقد وصف القرآن

بدأ التكوين فقال « واستوى الى السماء وهي دخان »

وكشفوا ان الكائنات في حركة دائمة دائبة والقرآن يقول « وآية لهم الارض الميتة أحييناها » الى ان يقول « وكل في فلك يسبحون »

وحققوا ان الارض منفتقة من النظام الشمسي والقرآن يقول « ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما »

وحققوا ان القمر منشق من الارض والقرآن يقول « أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها » ويقول اقتربت الساعة وانشق القمر

وحققوا ان طبقات الارض سبع والقرآن يقول « خلق سبع سماوات طباقاً ومن الارض مثلهن »

وحققوا انه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعي ان تميد الارض أي ترتج في دورتها والقرآن يقول « ألقى في الارض رواسي ان تميد بكم »

وكشفوا ان التغيير في التركيب الكيماوي بل والمعنوي ناشيء عن تخالف نسبة المقادير والقرآن يقول « كل شيء عنده بمقدار »

وكشفوا ان للجمادات حياة قائمة بماء التبلور والقرآن يقول « جعلنا من الماء كل شيء حي »

وحققوا ان العالم العضوي ومنه الانسان ترقى من الجماد والقرآن يقول « خلقنا الانسان من سلالة من طين »

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات والقرآن يقول « وخلق الازواج كلها مما تنبت الارض » ويقول فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى » ويقول « واهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » ويقول « من كل الثمرات جعل فيها زوجين »

وكشفوا طريقة امساك الظل أي التصوير الشمسي والقرآن يقول « ألم ترَ الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً »

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء والقرآن يقول بعد ذكره الدواب والجواري بالريح « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون »

وكشفوا وجود المكروب وتأثيره الجدري وغيره من المرض والقرآن يقول « أرسل عليهم طيراً أبابيل » أي متتابعة

مجتمعة « ترميهم بحجارة من سجيل » أي من طين المستنقعات اليابس الى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيأة والنواميس الطبيعية . وبالقياس على ما تقدم ذكره يقتضي ان كثيراً من آياته سينكشف سرها في المستقبل في وقتها المرهون تجديداً لاعجازه ما دام الزمان وما كرّ الجديدان

الاستبداد والعلم

ما أشبه المستبد في نسبته الى رعيته بالوصي الخائن القوي على أيتام أغنياء . يتصرف في أموالهم وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين فكما انه ليس من صالح الوصي ان يبلغ الايتام رشدهم . كذلك ليس من غرض المستبد ان تتنور الرعية بالعلم

لا يخفى على المستبد ان لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء . فلو كان المستبد طيراً لكان خفاشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل

العلم قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافاً مبصراً ولاداً للحرارة والقوة وجعل العلم مثله وضاحاً للخير فضاحاً للشر يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة

المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان اذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الالوية أو سحر بيان يحل الجيوش . لانه يعرف ان الزمان ضنين بان تلد الامهات كثيراً من أمثال الكميت وحسان أو مونتسكيو وشيللار

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده انها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وانما يتلهى بها المتهوسون للعلم . فاذا نبغ فيهم البعض ونالوا شهرة بين العوام لا يعدم وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره بنحو سد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد

نعم ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الامم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الادبية وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم المبسقة الشموس المحرقة الرؤوس

ويقال بالاجمال ان المستبد لا يخاف من العلوم كلها بل

من التي توسع العقول وتعرف الانسان ما هو الانسان وما هي حقوقه وهل هو مغبون وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ . المستبد عاشق للخيانة والعلماء عواذله . المستبد سارق ومخادع والعلماء منبهون محذرون وللمستبد أعمال وصوالح لا يفسدها عليه الا العلماء

المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته لان للعلم سلطاناً أقوى من كل سلطان فلا بد للمستبد من ان يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علماً . ولذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم ذكي فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتصاغر المتملق . وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله (فاز المتملقون) بل هذه طبيعة في كل المتكبرين وعليها مبنى ثنائهم على كل من يكون مسكيناً خاملاً لا يرجى لخير ولا لشر

وينتج مما تقدم ان بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً . يسعى العلماء في نشر العلم ويجتهد المستبد في اطفاء نوره . والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم أولئك الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا

العوام هم قوت المستبد وقوته بهم عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول . يأسرهم فيتهللون لشوكته ويغصب أموالهم فيحمدونه على ابقاء الحياة . ويهينهم فيثنون على رفعته ويغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته واذا أسرف بأموالهم يقولون عنه انه كريم واذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيماً ويسوقهم الى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب وان تهم عليه منهم بعض الاباة قاتلوهم كأنهم بغاة

والحاصل ان العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل فاذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع أي انقلب المستبد رغم طبعه الى وكيل أمين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام وأب حليم يتلذذ بالتحاب

وحينئذ تنال الامة حياة رضية هنية . حياة رخاء ونماء . حياة عزّ وسعادة . ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ بعد ان كان في دور الاستبداد أشقى العباد لانه كان على الدوام محاطاً بالاعداء ملحوظاً بالبغضاء غير أمين على حياته طرفة عين

ولا شك ان خوف المستبد من نقمة رعيته اكثر من

خوفهم بأسه لان خوفه ينشأ عن علم وخوفهم ناشيء عن جهل وخوفه من انتقام بحق وخوفهم عن توهم التخاذل وخوفه على فقد حياته وسلطانه وخوفهم على لقيمات من النبات وعلى وطن يألفون غيره في أيام

وكلما زاد المستبد ظلماً واعتسافا زاد خوفه من رعيته ومن حاشيته وحتى من هواجسه وخيالاته . وكثيراً ما تختم حياة المستبدين الضعيفي القلوب منهم بالجنون

ومن قواعد المؤرخين المدققين ان أحدهم اذا أراد الموازنة بين مستبدين كنيرون وتيمور مثلاً يكتفي أن يوازن درجة ما كانا عليه من التحذر والتحفظ . واذا أراد المفاضلة بين عادلين كأنوشروان وصلاح الدين يوازن مرتبتي أمنهما في قوميهما

لما كانت اكثر الديانات القديمة مؤسسة على مبدأي الخير والشر كالنور والظلام والشمس وزحل والعقل والشيطان رأت بعض الامم الغابرة ان أضر شيء على الانسان هو الجهل وأضر آثار الجهل هو الخوف فعملت هيكلاً مخصصاً للخوف يعبد اتقاءً لشره

قال أحد المحررين السياسيين اني أرى قصر المستبد في

كل زمان هو هيكل الخوف عينه . فالملك الجبار هو المعبود وأعوانه هم الكهنة ومكتبته هي المذبح المقدس والاقلام هي السكاكين وعبارات التعظيم هي الصلوات والناس هم الاسرى الذين يقدمون قرابين

ويقول أهل النظر في أحوال البشر ان خير ما يستدل به على صفة السياسة في الامم شنآن الملوك وخامة القصور وعظمة الحفلات ومراسم التشريفات

يقولون انه كذلك يستدل على دراقة الامة في الاستبداد أو الحرية باستنطاق لغتها هل هي كثيرة ألفاظ التعظيم غنية في عبارات الخضوع كالفارسية مثلاً أم فقيرة في هذا الباب كالعربية

والخلاصة ان الاستبداد والعلم ضدان متغالبان فكل ادارة مستبدة تسعى جهدها في اطفاء نور العلم وحصر الرعية في حالك الجهل . وكذلك بعض العلماء الذين ينبتون في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير أفكار الناس . والغالب ان رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره . وهذا سبب ان كل الانبياء العظام عليهم الصلاة والسلام واكثر العلماء

الاعلام والادباء النبلاء تقلبوا في البلاد وماتوا غرباء

قال المدققون ان أخوف ما يخافه المستبدون الغريبون من العلم أن يعرف الناس حقيقة ان الحرية أفضل من الحياة وان يعرفوا النفس وعزها والشرف وعظمته والحقوق وكيف تحفظ والظلم وكيف يرفع والانسانية وما هي وظائفها والرحمة وما هي لذاتها

أما المستبدون الشرقيون وخوفهم من العلم فأفئدتهم هواء يرتجف من صولة العلم وكان أجسامهم من بارود والعلم نار . نعم يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة (لا اله الا الله) . ولماذا كانت أفضل الذكر ولماذا بني عليها الاسلام. بني الاسلام بل وكافة الاديان على لا اله الا الله ومعنى ذلك انه لا يعبد حقاً سواه أي سوى الصانع الاعظم ومعنى العبادة التذلل والخضوع فيكون معنى لا اله الا الله (لا يستحق التذلل والخضوع شيء غير الله) فهل والحالة هذه يناسب المستبدين ان يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه كلاّ ثم كلاّ

حتى ان هذا العلم لا يناسب صغار المستبدين كخدمة الاديان الاقوياء أو الاغبياء والآباء الجهلاء والازواج الحمقاء

ورؤساء كل الجمعيات الضعيفة . ولهذا ما انتشر نور التوحيد في أمة قط الا وتكسرت فيها قيود الاسر ولكن قتل الانسان ما اكفره بنعم مولاه وما أظلمه لنفسه وجنسه

الاستبدا والمجد

من الحكم البالغة للمتأخرين قولهم « الاستبداد أصل لكل فساد » . ومبني ذلك ان البحث المدقق في أحوال البشر وطبائع الاجتماع كشف ان للاستبداد أثراً سيئاً في كل واد

وقد سبق ان الاستبداد يضغط على العقل فيفسده ويلعب بالدين فيفسده . ويحارب العلم فيفسده . واني الآن أبحث في انه كيف يغالب الاستبداد المجد فيفسده ويقيم مقامه التمجد

المجد هو احراز المرء مقام حب واحترام في القلوب وهو مطلب طبيعي شريف لكل انسان لا يترفع عنه نبي أو زاهد ولا يحط عنه دني أو خامل . للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند المتفانين في الله وتعادل لذة العلم عند الحكماء وتربو على لذة امتلاك الارض مع قمرها عند الامراء وتزيد

على لذة مفاجئة الاثراء عند الفقراء ولذا يزاحم المجد في النفوس منزلة الحياة

وقد طالما أشكل على الباحثين أى الحرصين أقوى ؛ حرص الحياة أم حرص المجد ؛ والحقيقة التي عول عليها المتأخرون وميزوا بها تخليط ابن خلدون هي ان المجد مفضل على الحياة عند الاحرار . وحب الحياة ممتاز على المجد عند الاسراء. وعلى هذه القاعدة يكون أئمة آل البيت عليهم السلام معذورين في القائهم بانفسهم في المهالك لانهم لما كانوا أحراراً أبراراً يميزون طبعاً الموت كراماً على حياة ذل ورياء مثل حياة ابن خلدون الذي خطأ أمجاد البشر في اقدامهم على الخطر ناسياً تقريزه ان سباع الطير والوحوش تأبي التناسل في اقفاص الاسر بل وجدت فيها طبيعية اختيار الانتحار تخلصاً من قيود الذل

المجد لا ينال الا بنوع من البذل في سبيل الجماعة وبتعبير الشرقيين في سبيل الله أو سبيل الدين . وبتعبير الغربيين في سبيل الانسانية أو سبيل الوطنية. والمولى تعالى المستحق التعظيم لذاته ماطالب عبيده بتمجيده الا وقرن الطلب بذكر نعمائه عليهم

وهذا البذل أما بذل مال للنفع العام ويسمى مجد الكرم

وهو أضعف المجد . أو بذل العلم النافع المفيد للجمعية ويسمى مجد الفضيلة . أو بذل النفس بالتعرض للمشاق والاخطار في سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ويسمى مجد النبالة . وهذا أعلى المجد وهو المراد عند الاطلاق . وهو المجد الذي تتوق اليه النفوس الكبيرة وتحن اليه أعناق النبلاء . وكم له من عشاق لذت لهم في حبه الشهادة وأكثرهم يكون من مواليد بيوت الشرف التالد الذي يتصل أوله بعهد الحرية والعدل او يكون من نجباء بيوت ما انقطعت فيها سلسلة المجاهدين انقطاعاً طويلاً . ومن أمثلة المجد قولهم خلق الله للمجد رجالاً يستعذبون الموت في سبيله

وهذا (نيرون) سأل « آغريبين » الشاعر وهو تحت النطع من أشقى الناس ؛ فأجابه معرضاً به من اذا ذكر الناس الاستبداد كان مثالاً له في الخيال . وكان (ترابان) العادل اذا قلد سيفاً لقائد يقول له هذا سيف الامة أرجو ان لا اتعدى القانون فلا يكون له نصيب في عنقي . وخرج قيس من مجلس الوليد مغضباً يقول أتريد أن تكون جباراً والله ان نعال الصعاليق لاطول من سيفك . وقيل لاحد الاباة ما فائدة

سعيك غير جلب الشقاء على نفسك فقال ما أحلى الشقاء في سبيل تنغيص الظالمين . وقال آخر عليّ أن أفي بوظيفتي وما عليّ ضمان القضاء . وقيل لاحد النبلاء لماذا لا تبني لك داراً فقال ما أصنع فيها وأنا المقيم على ظهر الجواد أو في السجن أو في القبر . وهذه ذات النطاقين « أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها » وهي امرأة عجوز تودع ابنها الوحيد بقولها ان كنت على الحق فاذهب وقاتل الحجاج حتى تموت

والحاصل ان المجد هو المجد محبب للنفوس لا تفتأ تسعى وراءه وترقى مراقيه وهو ميسر في عهد العدل لكل انسان على حسب استعداده وهمته . وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم على حسب الامكان

* * *

ويقابل المجد من حيث مبناه التمجد وما هو التمجد ؟ وماذا يكون التمجد ؟ التمجد التمجد لفظ هائل المعنى ولهذا أراني اتعثر بالكلام وأتلعثم في الخطاب لا سيما من حيث أخشى مساس احساس بعض المطالعين ان لم يكن من جهة أنفسهم فمن جهة أجدادهم الاولين . فأناشدهم الوجدان والحق

المهان ان يتجردوا دقيقتين من النفس وهواها . ثم هم مثلي ومثل سائر الجانين على الانسانية لا يعدمون تأويلاً . وانني أعلل النفس بقبولهم تهويني هذا فأنطلق وأقول

التمجد خاص بالادارات المستبدة وهو القربى من المستبد بالفعل كالاعوان والعمال أو بالقوة كالملقبين بنحو دوق وبارون والمخاطبين بنحو رب العزة ورب الصولة أو الموسومين بالنياشين أو المطوقين بالحمائل . وبتعريف آخر التمجد هو ان ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف الانسانية

وبتوصيف أجلى هو ان يتقلد الرجل سيفاً من قبل الجبار يبرهن به على انه جلاد في دولة الاستبداد أو يعلق على صدره وساماً مشعراً بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان أو يتحلى بسيور مزركشة تنبئ بانه صار أقرب الى النساء منه الى الرجال . وبعبارة أوضح وأخصر هو ان يصير الانسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الاعظم

قلت ان التمجد خاص بالادارات الاستبدادية وذلك لان الحكومة الحرة التي تمثل عواطف الامة تأبى كل الآباء اخلال التساوي بين الافراد الا لموجب حقيقي فلا ترفع قدر

احد منها الاثناء قيامه في خدمتها أي الخدمة العمومية كما انها لا تميزه بوسام أو تشرفه بلقب الا اعلاناً لخدمة مهمة وفقه الله اليها . وبمثل هذا يرفع الله الناس بعضهم فوق بعض درجات

وهذا لقب اللوردية مثلاً عند الانكليز هو من بقايا عهد الاستبداد ولكن لا يناله عندهم غالباً الا من يخدم أمته خدمة عظيمة ويكون من حيث اخلاقه وثروته أهلاً لان يخدمها خدماً مهمة غيرها ومع ذلك لاعتبار اللورد في نظر الامة الا ما دامت تقرأ في جبهته سطراً محرراً بقلم الوطنية وبمداد الشهامة ممضي بدمه يقسم فيه بشرفه انه ضمين ناموس الامة أي قانونها الاساسي . حفيظ على روحها أي حريتها

التمجد لا يكاد يوجد له أثر في الامم القديمة الا في دعوي الالوهية وما بمعناها من نفع الناس بالانفاس أو في دعوى الاصلاء نسل الملوك والامراء وانما نشأ التمجد في القرون الوسطى وراج سوقه في القرون الاخيرة الى ان صارت الحرية تغسل ادارنه على حسب قوتها وطاقتها

المتمجدون يريدون ان يخدعوا العامة وما يخدعون الا

أنفسهم بانهم أحرار في شؤونهم لا يزاح لهم نقاب ولا تصفع منهم رقاب فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمل الاساآت والاهانات التي تقع عليهم من قبل المستبد بل للحرص على كتمها بل على اظهار عكسها بل على مقاومة من يدعي خلافها بل على تغليظ أفكار الناس في حق المستبد وابعادهم من اعتقاد ان من شأنه الظلم

وهكذا يكون المتمجدون أعداء للعدل أنصاراً للجور وهذا ما يقصده المستبد من ايجاد المتمجدين والاكثار منهم ليتمكن بواسطتهم من ان يغرر الامة على اضرار نفسها تحت اسم منفعتها فيسوقها مثلاً لحرب اقتضاها محض الاستبداد فيوهمها انه يريد نصرة الدين . أو يسرف بالملايين من أموال الامة في ملذاته وتأييد استبداده باسم حفظ شرف الامة وأبهة ملكها . أو يستخدم الامة في التنكيل باعداء ظلمه باسم انهم أعداء لها . أو يتصرف في حقوق الملك والامة كما يشاؤه هواه باسم ان ذلك مقتضى الحكمة والسياسة

المستبد قد يستمجد بعض أفراد من ضعاف القلوب الذين هم كبقر الجنة لا يطحون ولا يرمحون . يتخذهم كنموذج

البائع الغشاش على انه لاينتخب العمال والاعوان الا من الاراذل والاسافل . ولهذا يقال دولة الاستبداد دولة الاوغاد. والحكمة في ذلك أظهر من ان تحتاج الى بيان طويل

المستبد قد يستمجد أيضاً بالمناصب والمراتب بعض العقلاء الامناء اغتراراً منهم بانهم خبثاء ينفعونه بدهائهم ثم لما يخيب نظره فيهم بعد التجربة يبادر التنكيل بهم أو يهجرهم ولهذا لا ينال الحظوة عنده الا الجاهل العاجز أو الخبيث الخائن. وهنا أنبه فكر المطالعين الى ان هذه الفئة أي العقلاء الذين يذوقون عسيلة مجد الحكومة وينشطون لخدمة الامة ونيل مجد النبالة ثم يضرب على يدهم لمجرد انهم أمناء هي الفئة التي تتكرب بعداوة الاستبداد وينادي أفرادها بالاصلاح. وهذا الانقلاب قد أعيى المستبدين أمره لانهم لا يستغنون عن التجربة ولا يأمنون هذه المغبة . ومن هنا نشأ اعتمادهم في التجربة غالباً على العريقين في خدمة الاستبداد الوارثين من آبائهم وأجدادهم الاخلاق المرضية للمستبدين ومن هنا ابتدأت في الامم نغمة التمجد بالاصالة والانساب

* * *

حيث كان للاصالة مشاكلة قوية للمجد والتمجد رأيت ان أتكلم عليها قليلاً ثم أعود لبحث المستبد وأعوانه المتمجدين فأقول

الاصالة صفة لا تنكر مزاياها من حيث الاميال التي يرثها الابناء من الآباء . ومن حيث التربية التي تكون مستحكمة في البيت. ومن حيث انها تكون مقرونة بشيء من الثروة المعينة على مظاهر الرحمة والشهامة . ومن حيث انها مدعاة غالباً للتمثل بالاقران مشوقة للتفوق والتميز. ومن حيث تقويتها العلاقة بالامة والوطن. ومن حيث ان أهلها يكونون منظورين دائماً فيتحاشون نوعاً المعائب والنقائص

وبيوت الاصالة تنقسم الى ثلاثة أنواع . بيوت علم وفضيلة . وبيوت مال وكرم . وبيوت ظلم وامارة . وهذا الاخير هو القسم الاكثر عدداً والاهم موقعاً وهو مطمح نظر المستبد في الاستعانة وموضع ثقته. فلننظر ماذا هو نصيب هذا القسم من تلك المزايا

هل يرث الابن من جده المؤسس لمجده اميال في العدالة ولم توجد . أم يتربى على غير الوقار الباطل السائد فيما بين

العائلة في بيتهم. أم يستخدم الثروة في غير الملاذ البهيمية والابهة الكاسرة لقلوب الفقراء . أم يتمثل بغير اقران السوء المتملقين المنافقين . أم لا يستحقر أمته لجهلها قدره ومقامه . أم يرى لجنابه وطناً غير مقاعد التحكم . أم يستحي من الناس ومن هم الناس عنده غير أشباح فيها ارواح

وهذه حالة الاكثرين من الاصلاء على انه لا ينجس حق من نال منهم حظاً من العلم وأوتي الحكمة فان هؤلاء وقليل ماهم ينجبون نجابة عظيمة عجيبة . فكانهم يرثون قوة القلب فيستعملونها في الخير لا في الشر ويستفيدون من انفة الكبراء الجسارة على العظماء وهكذا تتحول قوة كل المميزات الى فضل فائض وحسب شامخ ومنها الحنين على الوطن وأهله والانين لمصابه والاقدام على العظائم . وأمثال هؤلاء النوابغ النجباء اذا كثروا في أمة يوشك ان يترقى منهم آحاد الى درجة الخوارق فيقودوا أممهم الى النجاح والفلاح ولا غرو فان اجتماع نفوذ النسب وقوة الحسب يفعلان ولا عجب فعل المستبد العادل أي عنقاء مغرب

ثم ان الاصلاء هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل

قبيل لان بني آدم داموا اخوانا متساوين الى ان ميزت الصدفة بعض أفرادهم بكثرة النسل فنشأت منها القوات العصبية . ونشأ من تنازعها تميز افراد على افراد وحفظ هذه الميزة اوجد الاصلاء . فالاصلاء في عشيرة . او امة اذا كانوا متقاربي القوات استبدوا على باقي الناس واسسوا حكومة اشراف . ومتى وجد بيت من الاصلاء يتميز كثيراً على باقي البيوت يستبد وحده ويؤسس الحكومة الفردية المقيدة اذا كان لباقي البيوت بقية بأس او المطلقة اذا لم يبق امامه ما يتقيه

بناء عليه اذا لم يوجد في امة اصلاء بالكلية او وجد ولكن كان لسواد الناس صوت غالب اقامت تلك الامة فعلا او حكماً لنفسها حكومة انتخابية لا وراثة فيها ابتداء . ولكن لا يتوالى بضع متولين الا ويصير انسالهم اصلاء يتناظرون كل فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الامة استعداداً للمغالبة واعادة التاريخ الاول

ومن أكبر مضار الاصلاء انهم يتمكنون اثناء المغالبة على اظهار الابهة والعظمة يسترهبون اعين الناس ويسحرون عقولهم ويتكبرون بها عليهم . ثم اذا غلب غالبهم واستبد بالامر لا

يتركها الباقون لألفتهم لذتها ومضاهاة للمستبد . والمستبد نفسه لا يحملهم على تركها بل يدرّ عليهم المال ويعينهم عليها ويعطيهم الالقاب والرتب وشيئاً من النفوذ والتسلط على الناس ليتلهوا بذلك عن مقاومة استبداده ولاجل ان يألفوها مديداً فتفسد اخلاقهم فينفر منهم الناس ولا يبقى لهم ملجأ غير بابه فيصيرون اعواناً له بعد ان كانوا اضداداً

ويستعمل المستبد ايضاً مع الاصلاء سياسة الشد والارخاء والالتفات والاغضاء كي لا يبطروا وسياسة القاء الفساد فيما بينهم كي لا يتفقوا عليه وتارة ينتقم من بعضهم باسم العدالة ارضاء للناس واخرى يستغني عن بعضهم بافراد من ادانى الرعية كسراً لشوكتهم . والحاصل ان المستبد يذلل الاصلاء بالترف حتى يجعلهم يترامون بين رجليه ثم يتخذهم لجاماً لتذليل الرعية . ويستعمل عين هذه السياسة مع العمال ورؤساء الاديان . وبهذه السياسة او نحوها يخلو الجو لهذا المستبد يعصف وينسف الرعية كريش يقلبه الصرصر والسموم على اديم من الجمر ولله الامر . نعم لله جل شأنه الامر حيث قال (واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق

عليها العذاب)

* * *

المستبد في لحظة جلوسه على عرشه ووجه تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان انساناً فصار آلهاً . ثم يرجع النظر فيرى نفسه في نفس الامر أعجز من كل عاجز وانه ما نال ما نال الا بواسطة من حوله من الاعوان . فيرفع نظره اليهم فيسمع لسان حالهم يقول له ما الارث . وما العرش . وما التاج . وما الصولجان الا اوهام في اوهام . ما مكنك في هذا المقام وسلطك على رقاب الانام الا سحرنا وخيانتنا لديننا ووجداننا ووطننا واخواننا فانظر كيف تعيش معنا

ثم يلتفت الى جماهير الرعية المتفرجين فيراهم مسحورين مبهوتين كأنهم اموات من حين . ولكن يتجلى في فكره ان بينهم بعض افراد عقلاء امجاد يخاطبونه بالعيون بان لنا معاشر الامة شؤوناً وكلناك في قضائها على ما نريد ونبغي لا على ما تريد فتبغي

وعندئذ يرجع المستبد الى نفسه قائلاً الاعوان الاعوان أسلمهم القياد وأردهم بجيش من الاوغاد أحارب بهم هؤلاء

الامجاد . وبغير هذا الحزم لا يدوم لي استبداد ولا استعباد

الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها من المستبد الاعظم الى الشرطي الى الفراش الى كناس الشوارع ولا يكون كل صنف الا من اسفل اهل طبقته اخلاقاً لان الاسافل لا يهمهم جلب محبة الناس انما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بانهم على شاكلته وانصار لدولته وشرهون لاكل السقطات من ذبيحة الامة . وبهذا يأمنهم ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه . وهذه الفئة المستبدة يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته . فكلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج الى زيادة جيش المتمجدين العاملين له والمحافظين عليه . واحتاج الى الدقة في اتخاذهم من اسفل السافلين الذين لا اثر عندهم لدين او وجدان واحتاج لحفظ النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكوسة وهي ان يكون اسفلهم طباعاً اعلاهم وظيفة وقرباً

* * *

ان العقل والتاريخ والعيان كل يشهد بان الوزير الاعظم المستبد هو اللئيم الاعظم في الامة ثم من دونه من الوزراء

يكونون دونه لؤماً وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات . وربما يغتر المطالع كما اغتر بعض المؤرخين البسطاء بأن كثيراً من وزراء المستبدين كانوا يتأوهون من المستبد ويتشكون من أعماله ويجهرون بملامه ويظهرون لو أنه ساعدهم الامكان لعملوا وفعلوا وافتدوا الامة بأموالهم بل وحياتهم فكيف والحالة هذه يكون هؤلاء اكثر الأمة لؤماً بل كيف ذلك ومنهم الذين خاطروا بأنفسهم والذين أقدموا على مقاومة الاستبداد فقالوا المراد او بعضه او هلكوا دونه

فجواب ذلك ان المستبد حريص على ظلم الناس وهو محتاج لعصابة تعينه . فهل يجوز العقل انه ينتخب لعصابته من يشك فيه انه لا يوافقه على مراده . كلا . هل ينتخب وزيراً له من السوقة لم تسبق له تجربة ولا معرفة ما انطوى عليه . كلا . هل يمكن ان يكون الوزير متخلقاً بالخير حقيقة وبالشر ظاهراً فيخدع المستبد بأعماله وهو هو الذي أعزه بكلمة ويعزله بكلمة . كلا . المستبد وهو من لا يجهل ان الناس اعداؤه لظلمه فهل يأمن على بابه من لا يثق به انه اظلم منه وابعد منه عن اعدائه . كلا

ثم كيف يكون الوزير أميناً من صولة المستبد اذا لم يكن بينهما وفاق واتفاق على خيرة الشيطان حال كون الوزير محسوداً بالطبع يتوقع له المزاحمون كل شر ويبغضه الناس ولو تبعاً لظالمهم وهو هدف في كل ساعة للشكايات المحقة والوشايات المحرقة.

أم كيف يكون عند الوزير شيء من التقوى او الحياء او العدل او الوجدان او الحكمة او المرحمة ويقبل ان يكون جلاداً للمستبد.

أم كيف يكون عند الوزير نزعة من الشفقة والرأفة على الامة وهو العالم بأنها تبغضه وتمقته وتتوقع له كل سوء مالم يتفق معها على المستبد وما هو بفاعل ذلك ابداً الا اذا يئس من اقباله عنده. وان فعل فلا يقصد نفع الامة انما يريد تهديد المستبد او فتح باب لمستبد جديد عساه يستوزره فيوازره على وزره

والنتيجة ان وزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الامة كما في الحكومات الدستورية. ومثله المشير هو مشير للمستبد مغير على الامة لا غيوراً عليها. خصوصاً وهو الذي يعلم من نفسه ان المستبد قلده السيف وهو لم يدفع عنه صائلاً

ولا فتح له فتحاً مبيناً وانما عاهده على استعمال هذا السيف في رقاب اعداء استبداده وما هم الا الامة المسكينة

بناء عليه لا يغتر احد من العقلاء بما يتشدق به الوزراء والقواد من الانكار على الاستبداد والتفلسف بالاصلاح وان تلهفوا وان تأففوا. ولا يخدع النبهاء لهم وان ناحوا وان بكوا. ولا يثقون بهم وبوجدانهم مهما صلوا وسبحوا. لان ذلك كله ينافي سيرهم وسيرتهم ولا ضامن على انهم اصبحوا يخالفون ماشبوا وشابوا عليه هم اقرب ان لا يقصدوا بتلك المظاهر غير تهديد المستبد واستدرار دماء الرعية اي اموالها. نعم كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير انه يريد القاء سيفه للامة لتكسره. وهو قد الف عمراً طويلاً لذة البذخ وعزة الجبروت. وهو من تلك الامة التي قتل الاستبداد فيها كل الاميال العالية الشريفة حتى صار الفلاح التعيس يؤخذ للجندية وهو يبكي فلا يكاد يلبس كم ثوبها الا ويتنمر على أمه وأبيه ويتمرد على أهل قريته وذويه ويكظ اسنانه عطشاً للدماء لا يميز بين أخ أو عدو

ولنذكر بعض الدلائل القطعية الدامغة التي تثبت ان

كل رجال عهد الاستبداد لا خلاق لهم ولا حمية ولا يرجى منهم خير مطلقاً. وان كل ما يتظاهرون به احياناً من التذمر والتألم يقصدون به تغرير وخداع الامة المسكينة ويطمعهم في انخداعها لهم علمهم بأن الاستبداد القائم في الحقيقة بهم والذي سيدوم ايضاً بهمتهم قد اعمى ابصار الامة وبصائرها وخدر اعصابها فهي لا ترى الا هولاً محيطاً ولا تشعر الا بألم عام فتئن من البلاء ولا تدري من اين جاءها. فتواسيها فئة باسم الدين يقولون لها هذا قضاء جاء من السماء فلا مردّ له بغير الصبر والرضاء ويغرّرها آخرون وهم أولئك الاعاظم المتوجعون بانهم اطباء المرض ويهتمون بازالته ومتحمسون لانقاذ الامة من تلك الملمة. وهم وأيم الحق كذابون مخادعون لا يريدون الا التضليل دائماً وتهديد المستبد احياناً

فمن تلك الدلائل انهم لا يستصنعون الا الاسافل الاراذل ولا يميلون لغير المتملقين المنافقين كما هو شأن صاحبهم المستبد الاكبر. ومنها انه قد يوجد منهم من لا يتنزل لقليل الرشوة ولكن لا يوجد فيهم من يأبى كثيرها. ومنها ان ليس فيهم غير المستبيح مشاركة المستبد في امتصاص دم الامة ذلك

بأخذهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة التي تعادل بضع اضعاف ما تسمح به الادارة العادلة لامثالهم. ومنها انهم لا يصرفون شيئاً ولو سراً من هذه الاموال الطائلة في سبيل مقاومة الاستبداد الذي يزعمون انهم اعداؤه ومنها ان احدهم قد يكون مسرفاً مبذراً فلا تكفيه الرواتب المعتدلة التي يمكن ان ينالها في ظل شجرة العدالة. ومنها انه قد يكون شحيحاً مقتراً في نفقاته بحيث يخل في شرف مقامه فلا يصرف نصف او ربع راتبه مع انه يقبضه زائداً على أجر مثله بحجة حفظ شرف المقام العائد لشرف الامة وبهذا الشح يكون خائناً ومهيناً

هذا ولا ينكر التاريخ ان الزمان اوجد نادراً بعض وزراء ندموا على ما فرطوا فتابوا وانابوا ورجعوا لصف الامة واستعدوا للكفارة المسيحية او الشهادة الاسلامية. كما ويوجد في كل زمان بعض شواذ من الوزراء والقواد عريقين في الشهامة فيظهر فيهم سر الوراثة ولو بعد الاربعين وربما السبعين ظهوراً بيناً تتلألأ في محياه ثريا الاخلاص

والنتيجة ان المستبد فرد عاجز لاقوة فيه ولا حول له الا بالمتمجدين. والامة المأسورة ليس لها من يحك جلدها

غير ظفرها ولا يقودها الا العقلاء بالتنوير والاهداء حتى اذا اكفهرت سماء عقول بنيها قيض الله لها منها قادة ابراراً يشترون لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم حيث جعل الله في ذلك لذتهم ولمثله خلقهم . كما خلق آخرين فساقاً فجاراً مهالكهم الشهوات والمثالب فسبحان الذي يختار من يشاء لما يشاء وهو الخلاق العظيم

الاستبداد والمال

لو كان الاستبداد رجلاً وأراد ان يحتسب وينتسب لقال « انا الشر أبي الظلم وأمي الاساءة وأخي الغدر وأختي المسكنة وعمي الضر وخالي الذل وابني الفقر وبنتي البطالة ووطني الخراب وعشيرتي الجهالة »

ويصح في وصف المال ان يقال : القوة مال والعقل مال والعلم مال والدين مال والثبات مال والجاه مال والجمال مال والترتيب مال والاقتصاد مال . والحاصل كل ما ينتفع بثمرته الانسان هو مال . وكل هذه الاسباب وثمراتها معرضة لافساد الاستبداد ومجلبة فيه للوبال

ان النظام الطبيعي في كل الحيوانات حتى في السمك والهوام الا العنكبوت بعد اخصابه ان النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضاً والانسان يأكل الانسان . ومن غريزتها ان تلتمس الرزق من الله أي من مورده الطبيعي والانسان حريص على التماسه من أخيه

عاش الانسان دهراً طويلاً يأكل لحم الانسان فعلاً الى ان تمكن حكماء الصين والهند من ابطال أكل اللحم كلياً والى ان جاءت الشرائع الدينية الاولى في الجهات السائرة ابتداء تخصيص ما يؤكل من الانسان بالقربان الذي يذبح للمعبود . ثم أبقت القربان وجعلت الذبيحة طعمة للنيران حتى تدرج الانسان الى نسيان لذة لحم اخوانه . وقد استبدل الله عز شأنه على يد ابراهيم عليه السلام قربان البشر بالحيوان واتبعه موسى وباقي الانبياء عليهم السلام وبه جاء الاسلام . أما عيسى عليه السلام فانه استعاض قربان الحيوان بالخبز ولكن بقي ذلك مقصوراً على الكنائس ولم يعم

وهكذا بطل أكل الانسان لحم الانسان الا عند بعض قبائل الزنوج فانه موجود حتى الآن . على ان الاستبداد

المشؤوم أحيا سنة أكل البشر بشكل أدهى وأمر . وذلك انه جعل الاقوام طعمة للظالمين فكان الاولون يذبحون ويأكلون من يأسرون من أعدائهم فقط والمستبدون يأسرون جماعتهم ويذبحونهم قصداً بمبضع الظلم ويمتصون دماء حياتهم بغضب أموالهم ويقصرون أعمارهم باستخدامهم سخرة في أعمالهم أو بغضب ثمرات اتعابهم. وهكذا لا فرق بين الاولين والآخرين في نهب الاعمار وازهاق الارواح الا في الشكل

ان بحث الاستبداد والمال بحث قوي العلاقة بالظلم القائم في فطرة الانسان ولهذا رأيت ان لا بأس في الاستطراد لمقدمات تتعلق نتائجها بالاستبداد الاجتماعي المحمي بقلاع الاستبداد السياسي . فمن ذلك

ان البشر المقدر مجموعهم بألف وخمسمائة مليون نصفهم كلّ على النصف الآخر ويشكل أكثرية هذا النصف. نساء المدن. ومن النساء. النساء هنّ النوع الذي عرف مقامه في الطبيعة بانه هو الحافظ لبقاء الجنس وانه يكفي للالف منه ملقح واحد وان باقي الذكور يساقون للمخاطر والمشاق أو يستحقون ما يستحقه ذكر النحل. وبهذا النظر اقتسمن النساء مع الذكور اعمال الحياة

قسمة ضيزى وتحكمن بسن قانون عام به جعلن نصيبهن هين الاشغال بدعوى الضعف. وجعلن نوعهن مطلوباً عزيزاً بإيهام العفة. وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهن محمدتين في الرجال. وجعلن نوعهن يهين ولا يهان ويظلم أو يظلم فيعان. وعلى هذا القانون يربون البنات والبنين ولهذا سماهم بعض الاخلاقيين بالنصف المضر. وقال ان الضرر يترقى مع الحضارة والمدنية على نسبة الترقي المضاعف . فالبدوية تسلب الرجل نصف ثمرة أعماله. والحضرية تسلب اثنين من ثلاث . والمدنية تسلب خمسة من ستة . وهكذا ترقى بنت العواصم

ثم ان رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة أيضاً فان رجال السياسة والاديان ومن يلتحق بهم وعددهم لا يتجاوز الواحد في المائة يتمتعون بنصف ما يجمد من دم البشر أو زيادة ينفقونه في الرفه والاسراف. مثال ذلك انهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها أحياناً ولا يفكرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام

ثم أهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهون والمحتكرون وأمثال هذه الطبقة ويقدرون كذلك بواحد في

المائة يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الالوف من الصناع والزراع. وهذه القسمة المتفاوتة بين آدم وحوّاء الى هذه النسبة المتباعدة هي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي.

نعم لا يقتضي ان يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذاك الجاهل النائم في ظل الحائط ولا المجتهد المخاطر بالكسول الخامل ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت بل تقتضي الانسانية ان يأخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته

بسط المولى جلت حكمته سلطان الانسان على الاكوان فطغى وبغى ونسي ربه وعبد المال والجمال وجعلهما منيته ومبتغاه كأنه خلق خادماً لبطنه وعضوه فقط لا شأن له غير الغذاء والتحاك. وبالنظر الى ان المال هو الوسيلة الموصلة للجمال كاد ينحصر أكبر همّ للانسان في جمع المال. ولهذا يكنى عنه بمعبود الامم ويسر الوجود وروى كريسو المؤرخ الروسي ان كاترينا شكت كسل رعيتها فارشدت الى حمل النساء على الخلاعة ففعلت وأحدثت كسوة المراقص فهب الشبان للعمل وكسب

المال لصرفه على ربات الجمال وفي ظرف خمس سنين تضاعف دخل خزينتها فاتسع لها مجال الاسراف. وهكذا المستبدون لا تهمهم الاخلاق انما يهمهم المال

المال عند الاقتصاديين ما ينتفع به الانسان وعند الحقوقيين ما يجري فيه المنع والبذل وعند السياسيين ما تستعاض به القوة وعند الاخلاقيين ما تحفظ به الحياة الشريفة. المال يستمد من الفيض الذي أودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها. ولا يملك أي لا يختص بانسان الا بعمل فيه أو في مقابلة

التمول أي ادخار المال طبيعة في بعض أنواع قليلة من الحيوانات الدنيئة الضعيفة كالنمل والنحل ولا أثر بطبيعة التمول في الحيوانات المرتقية غير الانسان فانه تطبع عليه. الانسان تطبع على التمول لدواعي الحاجة المحققة أو الموهومة ولا تحقق للحاجة الا عند سكان الاراضي الضيقة الثمرات على أهلها أو الاراضي المعرضة للقحط في بعض السنين. ويلتحق بالحاجة المحققة حاجة العاجزين قسماً عن التمول في البلاد المبتلات بجور الطبيعة أو جور الاستبداد. وربما يلتحق بها أيضاً الصرف على المضطرين وعلى المصارف العمومية في البلاد التي ينقصها الانتظام العام

والمراد بالانتظام العام معيشة الاشتراك العمومي التي جاء بها الاسلام ولكن لم تدم اكثر من قرنين كان فيهما المسلمون لا يجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفارات . وذلك ان الاسلامية كما أسست حكومة ديمقراطية وقد سبق ايضاحها أسست أيضاً أصول هذه المعيشة التي يتمنى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الافرنجي مع انه تسعى وراءها منهم جمعيات منتظمة مكوّنة من ملايين كثيرة ومع ان لها نوع من الاصل في الانجيل وهو تخصيص عشر الاموال للمساكين

وهذه الجمعيات تطلب التساوي أو التقارب في الحقوق والحالة المعاشية بين البشر وتسعى ضدّ الاستبداد المالي . ذلك التساوي والتقارب المقرران في الاسلامية ديناً بوسيلة أنواع الزكاة وتقسيمها على أنواع المصارف العامة وأنواع المحتاجين ولا يخفى على المدقق ان جزءاً من أربعين من رؤوس الاموال يلحق فقراء الامة باغنيائها ويمنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد المضرة باخلاق الافراد . وكذلك تركت الاسلامية معظم الاراضي الزراعية ملكاً لعامة الامة يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط وليس عليهم غير العشر أو الخراج

الذي لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال

ثم ان التمول لاجل الحاجات السالفة الذكر وبقدرها فقط محمود بثلاثة شروط والا كان حرص التمول من أقبح الخصال . الشرط الاول أن يكون احراز المال بوجه مشروع حلال أي باحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعارضة أو في مقابل عمل أو في مقابل ضمان

والشرط الثاني ان لا يكون في التمول تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الاراضي التي جعلها خالقها ممراً لكافة مخلوقاته وهي أمهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها وتأويهم في حضن أجزائها فجاء المستبدون الظالمون الاولون ووضعوا أصولاً لحمايتها من أبنائها وحاولوا بينهما فهذه ايرلانده مثلاً قدحماها الف مستبد مالي من الانكليز ليتمتعوا بثلثي أو ثلاثة ارباع ثمرات اتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة ايرلانده . وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالاً وستفوقها مآلاً . وكم من البشر في أوروبا المتمدنة وخصوصاً في لندره لا يجد أحدهم ارضاً ينام

عليها متمدداً بل ينامون في الطبقة السفلى حيث لا ينام البقر وهم قاعدون صفوفاً يعتمدون بصدورهم على حبال من مسد منصوبة أفقية فيتلوّون عليها يمنةً ويسرةً

وحكومة الصين المختلة النظام في نظر المتمدنين لا تجيز قوانينها ان يمتلك الشخص الواحد أكثر من مقدار معين من الارض لا يتجاوز العشرين كيلو متراً مربعاً أي اقل من خمسة افدنة مصرية . وروسيا المستبدة القاسية في عرف اكثر الاوروبيين وضعت أخيراً لولاياتها البولونية والغربية قانوناً أشبه بقانون الصين وزادت عليه انها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاح ولا تأذن لفلاح ان يستدين اكثر من نحو خمسمائة فرنك وحكومات الشرق اذا لم تستدرك الامر فتضع قانوناً من قبيل قانون روسيا تصبح الاراضي الزراعية بعد خمسين عاماً أو قرن على الاكثر كما رلانده الانكليزية المسكينة التي وجدت في مدى ثلاثة قرون شخصاً واحداً حاول ان يرحمها فلم يفلح واعني به غلادستون . على ان الشرق ربما لا يجد في ثلاثين قرناً من يلتمس الرحمة له

والشرط الثالث لجواز التمول . هو ان لا يتجاوز المال

قدر الحاجة بكثير لان افراط الثروة مهلكة للاخلاق الحميدة في الانسان فانه ليطغى ان رآه استغنى والشرائع السماوية كلها وكذلك الحكمة السياسية والاخلاقية والعمرانية حرّمن الربا بقصد حفظ التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية لان الربا هو كسب بدون مقابل مادي ففيه معنى الغصب وبدون عمل ففيه الالفة على البطالة المفسدة للاخلاق وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والاملاك . ومن المشاهد الذي لا خلاف فيه ان ليس من كسب لا عار فيه اربح من الربا مهما كان معتدلاً وان بالربا تربو الثروات فيختل التساوي بين الناس

وقد نظر الماليون والاقتصاديون في امر الربا فقالوا ان المعتدل منه نافع بل لا بد منه . أولاً لاجل قيام المعاملات الكبيرة . وثانياً لاجل ان النقود الموجودة لا تفي للتداول فكيف اذا امسك المكتنزون قسماً منها أيضاً . وثالثاً لاجل ان كثيرين من المتمولين لا يعرفون طرائق الاسترباح او لا يقدرون عليها كما ان كثيراً من العارفين بها لا يجدون رؤوس اموال ولا شركاء عنان . فهذا النظر صحيح من وجه انماء

ثروات الافراد والامم اما السياسيون والاخلاقيون فينظرون الى ان ضرر ذلك في جمهور الامم اكبر من نفعها لان هذه الثروات الافرادية تمكن الاستبداد الداخلي فتجعل الناس صنفين عبيداً واسياداً وتقوي الاستبداد الخارجي فتسهل التعدي على حرية واستقلال الامم الضعيفة مالاً وعدةً . وهذه مقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة ولذلك حرمت الديانات الربا تحريماً مغلظاً

حرص التمول وهو الطمع القبيح يخف كثيراً عند أهالي الحكومات العادلة المنتظمة مالم يكن فساد الاخلاق متغلباً على الاهالي كما كثر الامم المتمدنة في عهدنا الان فساد الاخلاق يزيد في الميل الى التمول في نسبة الحاجة الاسرافية . ولكن تحصيل الثروة في عهد الحكومة العادلة عسر جداً وقد لا يتأتى الا من طريق المراباة مع الامم المنحطة او التجارة الكبيرة التي فيها نوع احتكار او الاستعمار في البلاد البعيدة مع المخاطرات

وهذا الحرص القبيح يشتد كثيراً في رؤوس الناس في عهد الحكومات المستبدة حيث يسهل فيها تحصيل الثروة

بالسرقة من بيت المال وبالتعدي على الحقوق العامة وبغصب مافي ايدي الضعفاء ونحو ذلك من الوسائل المقدورة لكل انسان ترك الدين والوجدان والحياء جانباً وانحط في اخلاقه الى ملائمة المستبد الاعظم أو أحد أعوانه وعماله . ويكفيه ان يتصل بباب أحدهم ويتقرب من اعتابه ويظهر له انه في الاخلاق من امثاله وعلى شاكلته . ويبرهن له ذلك باشياء من التملق وشهادة الزور وخدمة الشهوات والتجسس والدلالة على السلب ونحو ذلك . ثم بعد ان يتمكن ويطلع على بعض الخفايا والاسرار التي يخاف المستبد من ظهورها خوفاً حقيقياً او وهمياً يكسب هذا المنتسب رسوخ القدم بل يصير هو باباً لغيره . وهكذا يحصل على الثروة الطائلة اذا ساعدته الظروف على الثبات طويلاً . وهذا اعظم ابواب الثروة في الشرق والغرب ويليه الاتجار بالدين ويليه الربا ثم الملاهي

وقد ذكر المدققون ان ثروة بعض الافراد في الحكومات العادلة اضر كثيراً منها في الحكومات المستبدة لان الاغنياء في الاولى يصرفون قوتهم المالية في افساد اخلاق الناس واخلال المساواة وايجاد الاستبداد أما الاغنياء في الحكومات

المستبدة فيصرفون ثروتهم في الابهة والتعاظم ارهابا للناس وتعويضا للسفالة الحقيقية بالتعالي الباطل ويسرفون الاموال في الفسق والفجور .

بناء عليه ثروة هؤلاء يتعجلها الزوال حيث يغصبها الاقوى منهم من الاضعف . وتزول أيضا والحمد لله قبل ان يتعلم أصحابها او ورثتهم كيف تحفظ الثروات وكيف تنمو وكيف يستعبدون بها الناس استعبادا اصوليا مستحكما كما هو الحال في اوربا المتمدنة المهددة بشروط الفوضويين بسبب اليأس من مقاومة الاستبداد المالي فيها

ولنرجع الى بحث طبيعة الاستبداد في مطلق المال فنقول. ان الاستبداد يجعل المال في أيدي الناس عرضة لسلب المستبد واعوانه وعماله غصبا او بحجة باطلة وعرضة أيضا لسلب المعتدين من اللصوص والمحتالين الراتعين في ظل أمان الاستبداد. وحيث المال لا يحصل الا بالمشقة فلا تختار النفوس الاقدام على المتاعب مع عدم الامن على الانتفاع بالثمرة

حفظ المال في عهد الادارة المستبدة أصعب من كسبه لان ظهور أثره على صاحبه مجلبة لانواع البلاء عليه . ولذلك

يضطر الناس زمن الاستبداد لاخفاء نعمة الله والتظاهر بالفقر والفاقة . ولهذا يقال في امثال هؤلاء ان حفظ درهم من الذهب يحتاج الى قنطار من العقل. ويقال العاقل من يخفي ذهبه وذهابه ومذهبه ويقال أسعد الناس الصعلوك الذي لا يعرف الحكام ولا يعرفونه

ومن طبائع الاستبداد ان الاغنياء اعداء فكرا واوتاده عملا فهم ربائط المستبد بذلهم فيأتون ويستدرهم فيحنون. ولهذا يرسخ الذل في الامم التي يكثر اغنياؤها اما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ويحبب اليهم ببعض الاعمال التي ظاهرها الرأفة يقصد بذلك ان يغصب ايضا قلوبهم التي لا يملكون غيرها. والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة خوف البغات من العقاب فهم لا يجسرون على الافتكار فضلا عن الانكار كأنهم يتوهمون ان داخل رؤوسهم جواسيس عليهم . وقد يبلغ فساد الاخلاق في الفقراء ان يسرهم فعلا رضاء المستبد عنهم باي وجه كان رضاؤه

قيل في مدح المال ان اكبر ما يحل المشكلات الزمان والمال . وقالوا لا يصان الشرف الا باليم ولا يأتى العز الا

بالمال . وورد في الاثر . ان اليد العليا خير من اليد السفلى . وان الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر . ولم يكن قديماً أهمية للثروة العمومية اما الآن وقد صارت المحاربات محض مغالبات علم ومال فأصبح للثروة العمومية اهمية عظمى لاجل حفظ الاستقلال على ان الامم المأسورة لا نصيب لها من الثروة العمومية فأصبحت منزلتها في المجتمع الانساني كالانعام تتناقلها الايدي

هذا وللمال الكثير آفات على الحياة الشريفة ترتعد منها فرائص أهل الفضيلة والكمال الذين يفضلون الكفاف من الرزق مع حفظ الحرية والشرف على امتلاك دواعي الترف والسرف . وينظرون الى المال الزائد عن الحاجة انه بلاء في بلاء في بلاء . أي انه بلاء من حيث التعب في تحصيله وبلاء من حيث القلق على حفظه وبلاء من حيث ربطه صاحبه على وتد الاستبداد . واما المكتفي فيعيش مطمئناً مستريحاً امينا بعض الامن على دينه وشرفه واخلاقه

قرّر الاخلاقيون ان الانسان لا يكون انساناً ما لم تكن له صنعة مفيدة تكفي معاشه باقتصاد لا تنقصه فتذله ولا تزيد

عليه فتطغيه . وهذا معنى الحديث (فاز المخفون) وحديث (اسألوا الله الكفاف من الرزق) ويقال الغني غني القلب . والغني من قلت حاجته . والغني من استغنى عن الناس . قال بعض الحكماء كل انسان فقير بالطبع ينقصه مثل ما يملك فمن يملك عشرة يرى نفسه محتاجاً لعشرة أخرى ومن يملك ألفاً يرى نفسه محتاجاً لالف أخرى . وهذا معنى الحديث (لو كان لابن آدم واد من ذهب «وفي رواية من غنم» لتمنى ان يكون له واد آخر)

ولا يقصد الاخلاقيون من التزهيد في المال التثبيط عن كسبه انما يقصدون ان لا يتجاوز كسبه الطرائق الطبيعية الشريفة . أما المستبدون فلا يهمهم الا أن تستغني الرعية بأي وسيلة كانت والغربيون منهم يعينون الامة على الكسب والشرقيون لا يفتكرون في ذلك وهذه من جملة الفروق بين الاستبدادين الغربي والشرقي التي منها ان الاستبداد الغربي يكون أحكم وأرسخ وأشد ولكن مع اللين . والشرقي يكون مقلقلاً سريع الزوال ولكنه مزعج . ومنها ان الغربي اذا زال تبدل بحكومة عادلة تقيم ما ساعدت الظروف ان تقيم . اما

الشرقي فيزول ويخلفه استبداد شرّ منه لان من دأب الشرقيين ان لا يفتكروا في مستقبل قريب كأن اكبر همهم منصرف الى ما بعد الموت فقط

وخلاصة القول ان الاستبداد داء أشدّ وطأةً من الوباء. أكثر هولاً من الحريق. أعظم تخريباً من السيل. اذل للنفوس من السؤال. داء اذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادي القضاء القضاء والارض تناجي ربها بكشف البلاء. كيف لا تقشعر الجلود من الاستبداد وعهده عهد أشقى الناس فيه العقلاء والاغنياء وأسعدهم بحياة الجهلاء والفقراء بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الاحياء

الاستبداد والاخلاق

الاستبداد يتصرف في أكثر الاميال الطبيعية والاخلاق الحسنة فيضعفها أو يفسدها او يمحوها فيجعل الانسان يكفر بنعم مولاه لانه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد ويجعله حاقداً على قومه لانهم عون الاستبداد عليه. وفاقداً حب وطنه لانه غير آمن على الاستقرار ويود لو انتقل منه.

وضعيف الحب لعائلته لانه ايس مطمئناً على دوام علاقته معها. ومختل الثقة في صداقة احبابه لانه يعلم منهم انهم مثله لا يملكون التكافؤ وقد يضطرون لاضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون. أسير الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه لانه لا يملك مالاً غير معرض للسلب ولا شرفاً غير معرض للاهانة. ولا يملك الجاهل منه آمالاً مستقبلة ليتبعها ويشق كما يشق العاقل في سبيلها

وهذه الحال تجعل الاسير لا يذوق في الكون لذة نعيم غير الملذات البهيمية. بناء عليه يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وان كانت تعيسة. وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها. أين هو من الحياة الادبية أين هو من الحياة الاجتماعية. أما الاحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة ولا يعرف ذلك الا من كان منهم او كشف الله عن بصيرته. ومثال ذلك الشيوخ فانهم عند ما تمسي حياتهم كلها أسقاماً وآلاماً ويقربون من أبواب القبور يحرصون على حياتهم اكثر من الشباب في مقتبل العمر. في مقتبل الملاذ. في مقتبل الآمال

الاستبداد يسلب الراحة الفكرية فيضني الاجسام فوق ضناها بالشقاء فتمرض العقول ويختل الشعور على درجات متفاوتة في الناس . والعوام الذين هم قليلو المادة في الاصل قد يصل مرضهم العقلي الى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية ويصل تسفل ادراكهم الى ان مجرد آثار الابهة والعظمة التي يرونها على المستبد وأعوانه تبهر ابصارهم . ومجرد سماع ألفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم فيرون ويفكرون ان الدواء في الداء . فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذئاب حيث هي تجري على قدميها جاهدة الى مقر حتفها

ولهذا كان الاستبداد يستولى على تلك العقول الضعيفة للعامة فضلاً عن الاجسام فيفسدها كما يريد ويتغلب على تلك الاذهان الضئيلة فيشوش فيها الحقائق بل البديهات كما يهوى فيكون مثلهم في انقيادهم الاعمى للاستبداد ومقاومتهم للرشد والارشاد مثل تلك الهوام التي تترامى على النار وكم هي تغالب من يريد حجزها على الهلاك . ولا غرابة في تأثير ضعف

الاجسام في اضعاف العقول فان في المرضى وخفة عقولهم وذوي العاهات ونقص ادراكهم شاهداً بيناً كما يظهر الحال أيضاً بأقل تدقيق نظر في فرق الصحة وغزارة الدم وقوة الاجسام وجمال الهيئات بين جموع الاحرار وجموع الاسراء

ربما يستريب المطالع اللبيب الذي لم يتعب فكره في درس طبيعة الاستبداد من ان الاستبداد المشؤوم كيف يقوى على قلب الحقائق . فأقول نعم الاستبداد يقلب الحقائق في الاذهان . حتى انه قد مكن بعض القياصرة والملوك الاولين من التلاعب بالاديان تأييداً لاستبدادهم . وقد وضع الناس الحكومات لاجل خدمتهم والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة كلها خلقت لاجلهم فقبلوا وقنعوا . كما ان الاستبداد استخدم قوتهم المجتمعة وهي هي قوة الحكومة على مصالحهم لا لمصالحهم فارتضوا ورضخوا . وقد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم اليه من اعتقاد ان طالب الحق فاجر وتارك حقه مطيع والمشتكي المتظلم مفسد والنبيه المدقق ملحد والخامل المسكين هو الصالح الامين . وقد اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولاً والغيرة عداوة والشهامة

عتواً والحمية جنوناً والانسانية حماقة والرحمة مرضاً . كما جاروه على اعتبار ان النفاق سياسة والتحيل كياسة والدناءة لطف والنذالة دماثة

ولا غرابة في تحكم الاستبداد على الحقائق في افكار البسطاء انما الغريب اغفاله كثيراً من العقلاء ومنهم جمهور المؤرخين الذين يسمون الفاتحين الغالبين بالرجال العظام وينظرون اليهم نظر الاجلال والاحترام لمجرد انهم كانوا اكثروا في قتل الانسان وأسرفوا في تخريب العمران ومن هذا القبيل في الغرابة اعلاء المؤرخين قدر من جاروا المستبدين وحازوا القبول والوجاهة عند الظالمين . وكذلك افتخار الاخلاف بأسلافهم المرحومين الذين كانوا من هؤلاء الاعوان والمقربين

وقد يدخل على الناس ان للاستبداد حسنات مفقودة في الادارة الحرة ويسلمون له بها فيقولون الاستبداد يلين الطباع ويلطفها والحق ان ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة. ويقولون الاستبداد يعلم الطاعة والانقياد والحق ان هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن ارادة واختيار . أو يقولون هو يربي النفوس على احترام الكبير وتوفيره والحق

انه مع الكراهة والبغض لا عن ميل وحب . ويقولون الاستبداد يقلل الفسق والفجور والحق فيه انه عن فقر وعجز لا عن عفة أو دين . ويقولون هو يقلل الجرائم والحق انه يخفيها فيقل تعديدها لا عددها

***

تفعل العدالة في اخلاق البشر ما تفعله العناية في انماء الشجر فالافوام كالآجام ان تركت مهملة تزاحمت أشجارها وسقم أكثرها وتغلب قويها على ضعيفها فأهلكه وهكذا مثل القبائل المتوحشة . وان صادفت بستانياً يهمه بقاؤها وزهوها فدبرها حسبما تطلبه طباعها . قويت وأينعت وحسنت ثمارها وهذا مثل الحكومة العادلة واذا بليت بحطاب لا يعنيه الا عاجل الاكتساب أفسدها وخربها وهذا مثل الحكومة المستبدة. ومتى كان البستاني أو الحطاب غريباً لم يخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار . انما همه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الاصول فهناك الطامة وهناك البوار . فبناء على هذا المثال يكون مقام الاستبداد بازاء الاخلاق مقام ذلك الحطاب الذي لا يرجى منه غير الافساد

لا تكون الاخلاق أخلاقاً مالم تكن مطردة على قانون وهذا مايسمى عند الناس بالناموس ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان يقاد حيث يراد ويعيش كالريش يهب حيث يهب الريح لا نظام ولا ارادة . وما هي الارادة هي أم ناموس الاخلاق . هي ما قيل فيها تعظيماً لشأنها . لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الارادة . هي تلك الصفة التي تفضل الحيوان على النبات في تعريفه بأنه متحرك بالارادة .فأسير الاستبداد الفاقد الارادة هو مسلوب حق الحيوانية فضلاً عن الانسانية لانه يعمل بأمر غيره لا بارادته . ولهذا قال الفقهاء لا نية للرقيق في كثير من أحواله انما هو تابع لنية مولاه

أسير الاستبداد لا نظام في حياته قد يصبح غنياً فيضحى شجاعاً كريماً ويمسي فقيراً فيبيت جباناً خسيساً وهكذا كل شؤونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها فهو يتبعها بلا وجهة . فالاسير لا يبغي على الاسير فيزجر أو لا يزجر ويبغي عليه فينصر أو لا ينصر . ويجوع يوماً فيضوي . ويخصب يوماً فيتخم . يريد أشياء فيمنع ويأبى شيئاً فيرغم . ومن كانت هذه

حاله كيف يكون له خلاق وان وجد ابتداءً فكيف لا يفسد

أقل ما يؤثر الاستبداد في أخلاق الناس انه يرغم الاخيار منهم على ألفة الرياء والنفاق ولبئس السيئتان ويعين الاشرار على اجراء غي نفوسهم آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة لان اكثر أعمالهم تبقى مستورة يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة وعقبى ذكر الفاجر بما فيه

أقوى ضابط للاخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ وهو في عهد الاستبداد غير مقدور عليه لغير ذوي المنعة مع الغيرة وقليل ما هم وقليلاً ما يفعلون وقليلاً ما يفيد نهيهم لانه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضراً ولا نفعاً بل ولا يملكون من أنفسهم شيئاً . وينحصر موضوع نهيهم وانتقادهم في الرذائل النفسية الشخصية فقط مما لا يخفى على أحد . أما المتصدرون في عهد الاستبداد للوعظ والارشاد فيكونون مطلقاً ولا أقول غالباً من المتملقين المرائين . وما أبعد هؤلاء عن التأثير لان النصح الذي لا اخلاص فيه هو بذر ميت .أما النهي عن المنكرات في الادارة الحرة فيمكن كل غيور ان يقوم به بأمانة واخلاص ويوجهه

الى الضعفاء والاقوياء سواء ويفوّق سهام قوارصه على ذوي الشوكة والزعماء ويخوض في مواضيع تخفيف الظلم وتسديد النظام وهذا هو النصح الذي يعدي ويجدي

ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العلياء من الناس من أهمّ الامور أطلقت الامم الحرّة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط . ورأت ان تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد لانه لا ضامن للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعية أي الحرية. وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بوضعه قاعدة (ولا يضار كاتب ولا شهيد)

وهذه الامم الموفقة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية . وذلك منطبق تماماً على ما أمر به القرآن الكريم في آية (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وفي كمالة هذه الآية وهي (وأولئك هم المفلحون) من التبجيل ما يحمل من نفوس الابرار على تحمل

مضض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها الممقوتة طبعاً عند المستبد وأعوانه

* * *

الخصال تنقسم أولاً الى حسنة طبيعية كالصدق والامانة والهمة والمدافعة والرحمة . وقبيحة طبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة . وهذا القسم تضافرت عليه كل الطبائع والشرائع.. وثانياً الى خصال كمالية جاءت بها الشرائع الالهامية كتحسين الايثار والعفو وتقبيح الزنا والطمع وهذا القسم ربما يوجد فيه ما لا تدرك كل العقول حكمته او حكمة تعميمه انما يمتثله المنتسب للدين احتراماً أو خوفاً . والقسم الثالث الخصال الاعتيادية وهي ما يكتسبه الانسان بالوراثة أو بالتربية أو بالالفة فيستحسن أو يستقبح على حسب أمياله

ثم ان التدقيق يفيد ان الاقسام الثلاثة تشتبك وتشترك ويؤثر بعضها في بعض ويكون مجموعها تحت تأثير الالفة بحيث كل خصلة منها ترسخ أو تتزلزل حسبما يصادفها من استمرار الالفة أو انقطاعها . فالقاتل مثلاً لا يستنكر شنيعته في المرة الثانية كما استقبحها من نفسه في الاولى . وهكذا يخف الجرم

في وهمه حتى يصل الى درجة التلذذ بالقتل كأنه حق طبيعي له كما هي حالة الجبارين وغالب السياسيين فانهم يستبيحون اهراق الدماء لغاياتهم السياسية . ولهذا يصح وصف هذا الصنف بالجلادين ولا فرق في القتل بالسيف أو القلم بقطع الاوداج أو بايراث الشقاء

وكذلك يكون أسير الاستبداد لا سيما اذا كان عريقاً فيه فانه يرث شرّ الخصال ويتربى على أشرها ويصحبه الشر مدى العمر فمن أين تأتيه الخصال الحسان الا تكفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتيادية ألفته الرياء اضطراراً حتى يصير ملكة فيه فيفقد الثقة من نفسه فلا يقدر ان يحكم عليها بخلق مستقر فيه فلا يمكنه مثلاً ان يجزم بأمانته أو يضمن ثباته فيعيش سيء الظن في حق ذاته متردداً في اعماله لوماً نفسه على اهماله شؤونه شاعراً بنقصه لكن لا يشعر من أين أتاه فيتهم الخالق والخالق جلّ شأنه لم ينقصه شيئاً . ويتهم تارةً دينه وتارةً تربيته وتارةً زمانه وتارة قومه . والحقيقة بعيدة عن كل ذلك وما الحقيقة غير انه خلق حراً فأسر

اجمع الاخلاقيون على ان المتلبس بشائبة من القبائح

الخلقية الاصلية لا يمكنه ان يقطع بسلامة غيره منها — وهذا معنى (اذا ساءت فعال المرء ساءت ظنونه) فالمرائي مثلاً ليس من شأنه ان يظن البراءة في غيره من شائبة الرياء كلياً . الا اذا بعد تشابه النشأة بينهما بعداً كبيراً . كأن يكون بينهما مغايرة في الجنس والدين أو تفاوت مهم في المنزلة كصعلوك وأمير كبير . ومثال ذلك الفلاح وامثاله في الشرق يأمن الافرنجي في معاملته ويثق بوزنه وحسابه ولا يأمن ويثق بابن جلدته وكذلك الافرنجي اذا عهد من نفسه الخيانة قد يأمن الشرقي ولا يأمن مطلقاً ابن جنسه . وهذا الحكم صادق على عكس القضية أيضاً أي ان الامين يظن الناس أمناء خصوصاً اشباهه في النشأة وهذا معنى (الكريم يخدع) وكم يذهل الامين في نفسه عن اتباع حكمة الحزم في اساءة الظن في مواقعه اللازمة

اذا علمنا ان من طبيعة الاستبداد ألفة الناس بعد الاخلاق الرديئة وان منها ما يضعف الثقة بالنفس ولذلك يقل فيهم أهل العمل وأهل العزائم كما ويفقدهم ثقتهم بعضهم ببعض . فيعلم من ذلك ان الاسراء محرومون طبعاً من ثمرة الاشتراك في اعمال الحياة يعيشون مساكين بائسين متواكلين متخاذلين

متقاعسين متفاشلين والعاقل الحكيم لا يلومهم بل يشفق عليهم ويلتمس لهم مخرجاً ويتبع أثر أحكم الحكماء القائل (رب ارحم قومي فانهم لا يعلمون) اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون

وهنا استوقف المطامع واستلفته الى التأمل في ما هي ثمرة الاشتراك التي يحرمها الاسراء فاذكره بان الاشتراك هو أعظم سرّ الكائنات . به قيام كل شيء ما عدا الله وحده . به قيام الاجرام السماوية . به قيام المواليد . به قيام حياة العالم العضوي . به قيام الاجناس والانواع . به قيام الامم والقبائل . به قيام العائلات وأعضاء الاجسام . نعم فيه سرّ الحياة . فيه سر تضاعف القوة بنسبة ناموس التربيع . فيه سر تجديد الاستمرار على الاعمال التي لا تفي بها اعمار الافراد . نعم الاشتراك هو السرّ كل السر في نجاح الامم المتمدنة . به اكملوا ناموس حياتهم . به ضبطوا نظام حكوماتهم . به قاموا بعظائم الامور . به نالوا كلما يغبطهم عليه غيرهم

وربّ قائل يقول ان سر الاشتراك ليس بالامر الخفي وقد طالما كتب فيه الكتاب حتى ملته الاسماع ولم يندفع للقيام به في الشرق غير اليابانيين والبوير فما السبب ؟ . فأجيبه

بأن الكتاب كتبوا واكثروا واحسنوا فيما فصلوا وصوروا . ولكن قاتل الله الاستبداد وشؤمه جعلهم يحصرون أقوالهم في الدعوة الى الاشتراك وما يعنيه من التعاون والاتحاد والتحاب والاتفاق . ومنعهم من التعرض لذكر الاسباب كلياً . أو ضطرهم الى الاقتصار على بيان الاسباب الاخيرة فقط . فمن قائل مثلاً الشرق مريض وسببه الجهل . ومن قائل الجهل بلاء وسببه قلة المدارس . ومن قائل قلة المدارس عار وسببه عدم التعاون على انشائها من قبل الافراد أو من قبل ذوي الشأن .

وهذا أعمق ما يخطه قلم الكاتب الشرقي كأنه وصل الى السبب المانع الطبيعي أو الاختياري . والحقيقة ان هناك سلسلة أسباب أخرى تنتهي عند الدخول الى القيام بوظيفة الارشاد للزوم التخلص من الاستبداد . والسبيل الى تكاثر الطلاب

وقائل آخر يقول الشرق مريض وسببه فقد التمسك بالدين ثم يقف . مع انه لو تتبع الاسباب لبلغ الى الحكم بان التهاون في الدين ناشيء من الاستبداد . وان العافية المفقودة هي الحرية السياسية فيرشد اخوانه الى طلبها ومهرها كثرة الطلاب

***

قد اتفق الحكماء الذين اكرمهم الله تعالى بوظيفة الاخذ بيد الامم في بحثهم عن المهلكات والمنجيات على ان فساد الاخلاق يخرج الامم عن ان تكون قابلة للخطاء وان معاناة اصلاح الاخلاق من أصعب الامور وأحوجها الى الحكمة البالغة والعزم القومي . وذكروا ان فساد الاخلاق يفشو من المستبد وأعوانه من الوزراء الى الفراشين ومن القواد الى الانفار ومن هؤلاء يدخل فساد الاخلاق بالعدوى الى كل البيوت. لا سيما بيوت الطبقات العليا التي تمثل بها السفلى . وهكذا يتعمم الفساد وتمسي الامة يبكيها المحب ويشمت بها العدو . وتبيت وداؤها عياء لا يرجى له شفاء

وقد سلك الانبياء عليهم السلام في انقاذ الامم من شقائها مسلك الابتداء أولاً بفك العقول من تعظيم غير الله والاذعان لسواه . وذلك بتقوية حسن الايمان المفطور عليه وجدان كل انسان . ثم جهدوا في تنوير العقول بمباديء الحكمة وتعريف الانسان كيف يملك ارادته أي حريته في أفكاره . واختياره في أعماله وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا منبع الفساد. ثم بعد اطلاق زمام العقول صاروا ينظرون الى الانسان

بانه مكلف بقانون الانسانية ومطالب بحسن الاخلاق فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقنع وبث التربية التهذيبية

والحكماء السياسيون الاقدمون اتبعوا الانبياء عليهم السلام في سلوك هذه الطريق وهذا الترتيب . أي بالابتداء من نقطة دينية توصلاً لتحرير الضمائر ثم باتباع طريق التربية والتهذيب بدون فتور ولا انقطاع

أما المتأخرون الغربيون فمنهم فئة سلكوا طريقة الخروج بامهم من حظيرة الدين وآدابه النفيسة الى فضاء الاطلاق وتربية الطبيعة . زاعمين ان الفطرة في الانسان كافية لضبط النظام . وقد غرّهم بهذه الطريق زهوة مدخلها واعتقادهم ان الدين والاستبداد كلمتان بمعنى واحد

وقد ساعدهم على سلوك هذا المسلك انهم وجدوا أممهم قد فشأ فيها نور العلم . ذلك العلم الذي كان منحصراً في خدمة الدين عند المصريين والاشوريين. ومحتكراً في أبناء الاشراف عند الفرناطيين والرومان ومخصصاً في اعداد من الشبان المنتخبين عند الهنديين واليونان حتى جاء العرب بعد الاسلام وأطلقوا حرية العلم وأباحوا تناوله لكل متعلم فانتقل الى أوربا

حراً . فتنورت به عقول الامم على درجات وفي نسبتها ترقت تلك الامم في النعيم وانتشرت وتخالطت وصار المتأخر منها يغبط المتقدم ويتنغص من حالته ويتطلب اللحاق ويبحث عن وسائله . فنشأ من ذلك حركة معرفة الخير والغيرة على نواله . حركة معرفة الشر والانفة من الصبر عليه . حركة تستدعي السير الى الامام رغم كل معارض . فاغتنم زعماء الحرية قوة هذه الحركة وأضافوا اليها قوات أدبية شتى كاستبدال ثقالة وقار الدين بزهوة عروس الحرية حتى انهم لم يبالوا بتمثيل الحرية بحسناء خليعة تختلب النفوس . وكاستبدال رابطة الاشتراك في الطاعة للمستبدين برابطة الاشتراك بحب الوطن . وهكذا جعلوا قوة حركة الافكار تياراً سلطوه على رؤوس الرؤوس من أهل السياسة والدين . على ان هؤلاء الزعماء أخذوا من مهجورات دينهم قاعدة (الغاية تبرّر الواسطة) وقاعدة (تثقيل الذمة مبيح) ودفعوا الناس بهما الى ارتكاب الجرائم الفظيعة التي لا يستبيحها الحكيم الشرقي لما بين أبناء الغرب وأبناء الشرق من التباين في الغرائز والاخلاق

نعم الغربي مادي الحياة قوي النفس شديد المعاملة حريص

على الاستئثار حريص على الانتقام كأنه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق . فالجرماني مثلاً جاف الطبع يرى ان العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت . ويرى كل الفضيلة في القوة وكل القوة في المال فهو يحب العلم ولكن لاجل المال ويحب المجد ولكن لاجل المال . واللاتيني منه مطبوع على العجب والطيش . يرى العقل في الاطلاق والحياة في خلع الحياء . والشرف في الزينة واللباس . والعز في التغلب على الناس . أما أهل الشرق فهم أدبيون ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب والاصغاء للوجدان والرحمة ولو في غير موقعها . واللطف ولو مع الخصم والفتوة والقناعة والتهاون في المستقبل . ولهذا ليس من شأن الشرقي ان يجوز ما يستبيحه الغربي وان جوزه لا يحسن استثماره ولا يقوى على حفظه فالشرقي مثلاً يهتم في شأن ظالمه المستبد فاذا زال لا يفكر فيمن يخلفه

والحاصل ان الحكماء المتأخرين الغربيين ساعدتهم ظروف الزمان والمكان لاختصار الطريق فسلكوه واستباحوا ما استباحوا حتى انهم استباحوا في التمهيد بتشجيع المستبدين على

تشديد وطأة الظلم والاعتساف بقصد تعميم الحقد عليهم. وبمثل هذه التدابير القاسية نالوا المراد أو بعضه من تحرير الافكار وتهذيب الاخلاق وجعل الانسان انساناً

وقد سبق هؤلاء المتأخرين فئة اتبعت أثر النبيين ولم تحفل بطول الطريق وتعبه فنجحت ورسخت وأعني بتلك الفئة أولئك الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد ولا تمسكوا بمعاداة كل دين كمؤسسي جمهورية الفرنسيس بل رتقوا فتوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا حتى جددوه وجعلوه صالحاً لتجديد خليق أخلاقهم

وما احوج الشرقيين أجمعين من بوذيين ومسلمين ومسيحيين واسرائيليين وغيرهم الى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء الغفل الاغبياء. والرؤساء القساة الجهلاء يتجددون النظر في الدين فيعيدون النواقص المعطلة ويهذبونه من الزوائد الباطلة مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده فيحتاج الى مجددين يرجعون به الى أصله المبين البريء من حيث تمليك الارادة والسعادة في الحياة من كل ما يشين. المخفف شقاء الاستبداد والاستعباد المبصر بطرائق التعليم والتعلم الصحيحين . المهيء

قيام التربية الحسنة واستقرار الاخلاق المنتظمة مما به يصير الانسان انساناً وبه لا بالكفر يعيش الناس اخواناً

والشرقيون ما داموا على حاضر حالهم بعيدين عن الجد والعزم مرتاحين للهو والهزل تسكيناً لآلام اساوة النفس واخلاداً الى الخمول والتسفل طلباً لراحة الفكر المضغوط عليه من كل جانب يتألمون من تذكيرهم بالحقائق ومطالبتهم بالوظائف ينتظرون زوال العناد بالتواكل أو التمني والدعاء أو يتربصون صدفة مثل التي نالتها بعض الامم فليتوقعوا اذاً ان يفقدوا الدين كلياً فيصبحوا وما الصبح عليهم ببعيد دهريين لا يدرون أي الحياتين أشقى أو فلينتظروا ما حاق بالاشوريين والفينيقيين وغيرهم من الامم المنقرضة والله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون

الاستبداد والتربية

خلق الله في الانسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدانه . أي ان التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً ان خيراً فخير وان شراً فشر .

وقد سبق ان الاستبداد المشؤم يؤثر على الاجسام فيورثها الاسقام ويسطو على النفوس فيفسد الاخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم . بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته

استعداد الانسان لا حدّ لغايته فقد يبلغ في الكمال الى ما فوق مرتبة الملائكة لانه هو المخلوق الذي حمل الامانة وقد أبتها كافة العوالم. ويصح ان تكون هذه الامانة هي تخير تربية النفس على الخير أو الشر . وقد يتلبس بالرذائل حتى يكون أحط من الشياطين بل أحط من المستبدين لان الشياطين لا ينازعون الله في عظمته والمستبدون ينازعونه فيها ولكن لحاجة في النفس . والمتناهون في الرذالة قد يقبحون عبثاً لا لغرض حتى قد يتعمدون الاساءة لانفسهم

الانسان في نشأته كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه ولكنها اهواء التربية تميل به الى يمين الخير أو شمال الشرّ فاذا شب يبس وبقي على امياله ما دام حياً بل تبقى روحه الى أبد الابدين في جحيم الندم على التفريط أو نعيم السرور بايفاء

حق وظيفة الحياة . وما أشبه الانسان بعد الموت بالفرح الفخور اذا نام ولذت له الاحلام وبالمجرم الجاني اذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلها ملام وايلام

التربية ملكة تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس فأم أصولها وجود المربين وأم فروعها وجود الدين . وهذه الملكة بعد حصولها ان كانت شراً تضافرت مع النفس والشيطان الخناس فرسخت وان كانت خيراً تبقى مقلقلة كالسفينة في بحر الاهواء لا يرسو بها الا فرعها الديني أو الوازع السياسي مع المثابرة على العمل بمقتضاها . والاستبداد ريح صرصر فيه اعصار يجعل الانسان كل ساعة في شأن . وهو مفسد للدين في أهم قسميه أي الاخلاق . وأما العبادات منه فلا يمسها لانها تلائمه في الاكثر . ولهذا تبقى الاديان في الامم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات فلا تفيد في تطهير النفوس شيئاً فلا تنهى عن فحشاء ولا منكر وذلك لفقد الاخلاص فيها تبعاً لفقدها في النفوس التي ألفت ان تتلجا وتتلوى بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق ولهذا لا يستغرب في الاسير الاليف تلك

الحال ان يستعملها أيضاً مع ربه ومع أبيه وأمه ومع قومه وجنسه حتى ومع نفسه

التربية تربية الجسم وحده الى سنتين وهي وظيفة الام وحدها ثم تضاف اليها تربية النفس الى السابعة وهي وظيفة الابوين والعائلة معاً . ثم تضاف اليها تربية العقل الى البلوغ وهي وظيفة المعلمين والمدارس. ثم تأتي تربية القدوة بالاقربين والخلطاء الى الزواج وهي وظيفة الصدفة ثم تأتي تربية المقارنة وهي وظيفة الزوجين الى الموت أو الفراق

ولا بد ان تصحب التربية من بعد البلوغ تربية الظروف المحيطة وتربية الهيئة الاجتماعية وتربية القانون أو السير السياسي وتربية الانسان نفسه

* * *

الحكومات المنتظمة هي تتولى ملاحظة تربية الامة من حين تكون في ظهور الآباء وذلك بان تسن قوانين النكاح ثم تعتني بوجود القابلات والملقحين والاطباء. ثم تفتح بيوت الايتام اللقطاء ثم المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبري الى أعلى المراتب. ثم تسهل الاجتماعات وتمهد المراسح

وتحمي المنتديات وتجمع المكتبات والآثار وتقيم النصب المذكرات وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق وتسهر على حفظ العادات القومية وانماء الاحساسات الملية وتقوي الآمال وتيسر الاعمال وتؤمن العاجزين عن الكسب من الموت جوعاً الى ان تقوم باحتفالات جنائز ذوي الفضل على الامة . وهكذا الامة تحرص على ان يعيش ابنها راضياً بنصيبه من حياته لا يفتكر قط كيف تكون بعده حالة صبية ضعاف يتركهم وراءه بل يموت مطمئناً راضياً مرضياً آخر دعائه فلتحيَ الامة فلتحيَ الامة

أما المعيشة البشرية في الادارات المستبدة فهي غنية عن التربية لانها محض نماء يشبه نماء الاشجار الطبيعية في الغابات والاحراش يسطو عليها الحرّق والغرّق وتحطمها العواصف والايدي القواصف ويتصرّف في فسائلها وفروعها الفأس الاعمى فتعيش ما شاءت رحمة الحطابين ان تعيش والخيار للصدفة تعوج أو تستقيم تثمر أو تعقم

يعيش الانسان في ظل العدالة والحرية نشيطاً على العمل بياض نهاره وعلى الفكر سواد ليله ان طعم تلذذ وان تلهى

تروح وتريض . لانه هكذا رأى أبويه واقرباءه وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهم . يراهم رجالاً ونساءً أغنياء وفقراء ملوكاً وصعاليك كلهم دائبين على الاعمال يفتخر منهم كاسب الدينار بكده وجده على مالك المليار ارثاً عن أبيه وجده . نعم يعيش العامل الناعم البال يسره النجاح ولا تقبضه الخيبة انما ينتقل من عمل الى غيره ومن فكر الى آخر . فيكون سعيداً بأماله ان لم يسارعه السعد في أعماله وكيفما كان يبلغ العذر عند نفسه وذويه بمجرد ايفائه وظيفة الحياة أي العمل . ويكون فرحاً فخوراً نجح أو لم ينجح لانه بريء من عار العجز والبطالة

أما أسير الاستبداد فيعيش خاملاً خامداً ضائع القصد حائراً لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته ويدرج أيامه وأعوامه كأنه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب . ويخطيء من يظن ان أكثر الاسراء لا سيما منهم الفقراء لا يشعرون بآلام الاسر مستدلاً بانهم لو كانوا يشعرون لبادروا الى ازالته . والحقيقة في ذلك انهم يشعرون بأكثر الآلام ولكنهم لا يدركون ما هو سببها . فيرى أحدهم نفسه منقبضاً عن العمل لانه غير أمين على اختصاصه بالثمرة وربما ظن السلب حقاً

طبيعياً للاقوياء فيتمنى ان لو كان منهم . ثم يعمل تارة ولكن بدون نشاط ولا اتقان فيفشل ضرورة ولا يدري أيضاً ما السبب فيغضب على ما يسميه سعداً أو حظاً أو طالعاً أو قدراً

الاسير المعذب المنتسب الى دين يسلي نفسه بالسعادة الاخروية فيعدها بجنان ذات افنان ونعيم مقيم أعده له الرحمن . ويبعد عن فكره ان الدنيا عنوان الآخرة وانه ربما كان خاسر الصفقتين . ولبسطاء الاسلام مسليات أظنها خاصة بهم يعطفون مصائبهم عليها وهي نحو قولهم . الدنيا سجن المؤمن . المؤمن مصاب . اذا أحب الله عبداً ابتلاه . هذا شأن آخر الزمان . حسب المرء لقيمات يقمن صلبه . ويتناسون حديث (ان الله يكره العبد البطال) والحديث المفيد معنى (اذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها) ويتغافلون عن النص القاطع المؤجل قيام الساعة الى ما بعد استكمال الارض زخرفها وزينتها . وأين ذلك بعد

وكل هذه المسليات المثبطات تهون عند ذلك السم القاتل الذي يحوّل الاذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء فيرفع المسؤلية عن المستبدين ويلقيها على عاتق القضاء والقدر .

بل على عاتق الاسراء المساكين أنفسهم. وأعني بهذا السم سوء فهم العوام وبله الخواص لما ورد في التوراة من نحو (يد الله على قلب الملك) ولما ورد في الانجيل من نحو (اخضعوا للسلطان ولا سلطة الا من الله) و (الحاكم لا يتقلد السيف جزافاً انه مقام للانتقام من أهل الشرّ) ولما ورد في الرسائل من نحو (فلتخضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله) . وقد صاغ وعاظ المسلمين ومحدثوهم من ذلك قولهم (السلطان ظل الله في الارض) و (الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه) و (الملوك ملهمون) . هذا وكل ما ورد في هذا المعنى ان صح فهو مقيد بالعدالة أو محتمل للتأويل بما يعقل وبما ينطبق على حكم الآية الكريمة التي فيها فصل الخطاب وهي (ألا لعنة الله على الظالمين) وآية (ولا عدوان الا على الظالمين)

***

التربية علم وعمل. وليس من شأن الامم المملوكة شؤونها أن يوجد فيها من يعلم التربية ولا من يعلمها حتى لا يرى الباحث عندهم علماً في التربية مدفوناً في الكتب فضلاً عن الاذهان. أما العمل فلا يتصور بلا سبق عزم وهو بلا سبق

يقين وهو بلا سبق علم . وعندي ان هذا التسلسل هو المراد في حديث « انما الاعمال بالنيات » ثم ما أبعد الناس المغصوبة ارادتهم المغلولة أيديهم عن توجيه الفكر الى مقصد مفيد أو توجيه الجسم الى عمل نافع

ثم ما أبعد هؤلاء عن التربية وهي قصر النظر على المحاسن والعبر وقصر السمع على الفوائد والحكم وتعويد اللسان على قول الخير وتعويد اليد على الاتقان وتكبير النفس على السفاسف وتكبير الوجدان عن نصرة الباطل ورعاية الترتيب في الشؤون ورعاية الاقتصاد في الوقت والمال . والاندفاع بالكلية لحفظ الشرف لحفظ الحقوق ولحماية الدين لحماية الناموس ولحب الوطن لحب العائلة ولاعانة العلم لاعانة الضعيف ولاحتقار الظالمين لاحتقار الحياة . الى غير ذلك مما ينبت في رياض التربيتين العائلية والقومية

الاستبداد يضطر الناس الى اباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحسّ وامانة النفس الى آخره . وينتج من ذلك انه يربي الناس على هذه الخصال بناء عليه يرى الآباء ان تعبهم في تربية الابناء التربية الاولى

لا بد ان يذهب يوماً عبثاً تحت أرجل تربية الاستبداد كما ذهبت قبلها تربية آبائهم لهم سدى ثم ان عبيد السلطة التي لا حدود لها هم غير مالكين أنفسهم ولا هم آمنون على انهم يربون أولادهم لهم بل هم يربون انعاماً للمستبدين واعواناً لهم عليهم. وفي الحقيقة ان الاولاد في عهد الاستبداد سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق. فالتوالد من حيث هو زمن الاستبداد حمق والاعتناء بالتربية حمق مضاعف. وقد قال شاعر شاعر

ان دام هذا ولم تحدث له غير
لم يبكَ ميت ولم يفرح بمولود

وغالب الاسراء لا يدفعهم للتوالد قصد الاخصاب انما يدفعهم اليه الجهل المظلم وانهم محرومون من كل الملذات الحقيقة التي يحرمها أيضاً الاغنياء الجهلاء عامة كلذة العلم وتعليمه ولذة المجد والحماية ولذة الاثراء والبذل ولذة احراز مقام في القلوب ولذة نفوذ الرأي الصائب الى غير هذه الملذات الروحية. وأما ملذاتهم فهي مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات ان تيسرت والا فمزابل للنباتات ومنحصرة في

استفراغهم الشهوة كأن أجسامهم خلقت دملاً على أديم الارض وظيفتها توليد الصديد ودفعه. وهذا الشره البهيمي الناشئ عن فقد الملذات العالية المذكورة هو ما يعمي الاسراء ويرميهم بالزواج والتوالد مع ان العرض كسائر الحقوق غير مصون زمن الاستبداد بل هو معرض لهتك الفساق من المستبدين والاشرار من أعوانهم خصوصاً في الحواضر الصغيرة والقرى المستضعف أهلها. ولهذا الضعف في لصقة الأولاد بازواج أمهاتهم تأثير مهم في اضعاف الغيرة على تحمل مشاق التربية تلك الغيرة التي لأجلها شرع الله النكاح وحرّم السفاح

للسعة والفقر أيضاً دخل كبير في تسهيل التربية وأين الاسراء من السعة كما ان لانتظام المعيشة ولو مع الفقر علاقة قوية في التربية ومعيشة الاسراء أغنياء كانوا أو معدمين كلها خلل في خلل وضيق في ضيق: فما أبعد الاسراء اذن عن التربية. ثم ليت شعري لماذا يتحمل الآباء الاسراء مشاق التربية وهم ان نوروا أولادهم جنوا عليهم بتقوية احساسهم فيزيدونهم شقاء ويزوّدونهم بلاء ولهذا لا غرو ان يختار

الاسراء الذين فيهم بقية من الادراك ترك أولادهم هملاً تجرفهم البلاهة الى حيث تشاء

واذا افتكرنا كيف ينشأ الاسير في البيت الفقير وكيف يتربى . نجد انه يلقح به وفي الغالب أبواه متنا كدان متشا كسان . ثم اذا تحرك جنيناً حرك شراسة أمه فشتمته أو زاد آلام حياتها فضربته . فاذا ما نما ضيقت عليه مقره لألفتها الانحاء خمولاً أو التصرّر صغاراً أو التقلص لضيق الفراش . ومتى ولدته ضغطت عليه بالقماط اقتصاداً أوجهلاً . فاذا بكى تألماً سدت فمه بثديها أو قطعت نفسه بدوّار السرير او سقته مخدراً عجزاً عن نفقة الطبيب . فاذا ما فطم يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته ويفسد مزاجه . فان كان طويل العمر وترعرع يمنع من رياضة اللعب لضيق البيت . فان سأل واستفهم ليتعلم يزجر ويلكم لضيق خلق أبويه . فاذا قويت رجلاه يدفع به الى خارج الباب الى مدرسة الالفة على القذارة وتعلم صيغ الشتائم والسباب . فان عاش ونشأ وضع في مكتب أو عند ذي صنعة ويكون أكبر القصد ربطه عن السراح والمراح . فاذا بلغ الشباب ربطه أولياؤه على وتد الزواج كي لا يبرح يقاسمهم

شقاء الحياة ويجني على غيره كما جنى عليه أبواه . ثم هو يتولى التضييق على نفسه حتى بتثقيل الثياب المانعة حرية حركة جسمه . ويتولى المستبدون الضغط والتضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله . وهكذا يعيش الاسير من حين يكون نسمة في ضيق وضغط يهرول ما بين وداع سقم واستقبال سقم الى ان يستقبله الموت مضيعاً دنياه مع آخرته فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه

ولا يظنن المطالع ان حالة أغنياء الاسراء هي خير من هذا بكثير لانهم اذا نقصتهم بعض المنغصات تزيد فيهم مشاق التظاهر بالراحة والرفاه والعزة والمنعة تظاهراً ان صح قليله فكثيره الكاذب حمل ثقيل على عواتقهم

حياة الاسير تشبه حياة النائم المزعوج بالاحلام فهي حياة لا روح فيها . حياة وظيفتها تمثيل مندرسات الجسم لا علاقة لها بحفظ المزايا البشرية . ولولا ان ليس في الكون شيء غير تابع لنظام حتى فلتات الطبيعة والصدف التي هي مسببات لاسباب نادرة . لحكمنا بأن معيشة الاسراء هي محض فوضى لاشبه فوضى . على ان التدقيق العميق يفيدنا

بأن للاسراء قوانين غريبة في مقاومة الفناء لا يمكن ضبطها انما الاسير يرضعها مع لبن أمه ويتربى عليها ويبدع فيها بسائق الحاجة ويكون الحاذق فيها علماً الماهر في تطبيقها عملاً هو الموفق في ميدان تنازع البقاء والعاجز عنها يتعجله الزوال لاسيما اذا جاءه العجز من جهة زلاقة اللسان أو كبر النفس أو قوة الاحساس أو جسارة الجنان فانه الهالك لا محالة

قوانين حياة الاسير هي مقتضيات الشؤون المحيطة به التي تضطره لان يطبق احساساته عليها ويدبر نفسه على موجبها . وذلك نحو مقابلة التجبر عليه بالتذلل والتصاغر . وتعديل الشدة عليه بالتلاين والمطاولة واعطاء المطلوب منه بعد قليل من التمنع . واستعمال سياسة الشد والارخاء والكسب مع شكاية الحاجة . وحفظ المال بالاخفاء . والتعامي عن زلات المستبد . والتصامم عن سماع ما يحكى عليه . والتظاهر بفقد الحس . وستر العلم بالتجاهل والعقل بالتباله . وعزو كل خير الى المستبد وان كان نحو المطر فالى يمنه . واسناد الشرور الى الاستحقاق . والمطالبة بالحقوق بصفة استعطاف . الى غير ذلك من قانون الاسارى الذي رؤوس مسائله تمل القاري

فضلاً عن تفصيلاتها . هذا واخوف ما يخافه الاسير هو ان يظهر عليه أثر نعمة الله في الماء أو الجسم فتصيبه عين الجواسيس « وهذا أصل عقيدة اصابة العين » . أو أن يظهر له شأن في علم أو جاه او نعمة مهمة فيسعى به حاسدوه الى المستبد « وهذا أصل شر الحسد الذي يتعوذ منه » . وقد يحيل الاسير على حفظ ماله الذي لا يمكنه اخفاءه كالزوجة الجميلة أو الدابة الثمينة أو الدار الكبيرة فيحميها باسناد الشؤم « وهذا أصل التشاؤم بالاقدام والنواصي والاعتاب »

* * *

وقد اتضح مما تقدم ان التربية الصحيحة غير مقصودة ولا مقدورة في ظلال الاستبداد الا ما قد يكون بالتخويف من شر الظالمين . وهذا النوع يستلزم انخلاع القلوب لا تزكية النفوس . وقد أجمع علماء السياسة والاخلاق والتربية على ان الاقناع خير من الترغيب فضلاً عن الترهيب . وعلى هذه بنوا قولهم ان المدارس تقلل الجنايات لا السجون ووجدوا ان القصاص والمعاقبة قلما يفيدان في زجر النفس كما قال الحكيم العربي

لا ترجع الانفس عن غيها مالم يكن منها لها زاجر

ومن يتأمل جيداً في قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب » ملاحظاً ان معنى القصاص لغة هو التساوي ويدقق النظر في القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية ويتبع مسالك الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام يرى ان الاعتناء في طريق الهداية منصرف فيها الى الاقناع ثم الى الاطماع عاجلاً أو آجلاً ثم الى الترهيب الآجل غالباً ومع ترك أبواب تدلي الى النجاة

ثم ان التربية التي هي ضالة الامم وفقدها هو المصيبة العظمى في الشرق هي التربية المرتبة على اعداد العقل للتمييز ثم على حسن التفهيم والاقناع ثم على التمرين والتعويد ثم على حسن القدوة والمثال ثم على المواظبة والتمادي . فاذا كان لا مطمع في التربية العامة على هذه الاصول بمانع طبيعة الاستبداد فلا يكون لعقلاء المبتلين به الا ان يسعوا أولاً وراء ازالة المانع الضاغط على العقول . ثم يعتنوا بالتربية حيث يمكنهم حينئذ أن ينالوها على توالي البطون والله الموفق

الاستبداد والترقي

الحركة سنة عاملة في الخليقة دائبة بين شخوص وهبوط. فالترقي هو الحركة الحيوية أي حركة الشخوص ويقابله الهبوط وهو الحركة الى الموت أو الانحلال او الاستحالة او الانقلاب. وهذه السنة كما هي عاملة في المادة واعراضها عاملة أيضاً في الكيفيات ومركباتها والقول الشارح لذلك آية « ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » وحديث « ما تم أمر الا وبدا نقصه » وقولهم التاريخ يعيد نفسه . وحكمهم بأن الحياة والموت حقان طبيعيان

وهذه الحركة لا تقتضي السير الى النهاية شخوصاً او هبوطاً بل هي أشبه بميزان الحرارة كل ساعة في شأن والعبرة في الحكم للوجهة الغالبة . فاذا رأينا في امة آثار حركة الترقي هي الغالبة على افرادنا حكمنا لها بالحياة. ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت . وذلك لان الامة هي مجموع افراد يجمعها نسب أو وطن او لغة او دين كما ان البناء مجموع انقاض . فاذا ترقي أو انحط فرد واحد من أمة اثر ذلك في مجموع تلك

الامة . كما اذا وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة اثقلتها وامالتها حقيقة وان لم يدرك ذلك بالمشاعر

الترقي الحيوي الذي يسعى وراءه الانسان بفطرته هو أولاً الترقي في الجسم صحة وتلذذاً ثم الترقي في التركيب بالعائلة والعشيرة . ثم الترقي في القوة بالعلم والمال . ثم الترقي في الملكات بالخصال والمفاخر

وهناك نوع آخر بالترقي يتعلق بالروح وهو ان الانسان يحمل نفساً ملهمة بأن لها وراء حياتها هذه حياة أخرى تترقى اليها على سلم الرحمة والحسنات . فأهل الاديان يؤمنون بالبعث أو التناسخ فيرجون مكافأة ويخافون مجازاة . ومن هم من قبيل الطبيعيين يهتمون بالحياة التاريخية بحسن الذكر او قبحه

وهذه الترقيات على أنواعها لا يزال الانسان يسعى وراءها ما لم يعترضه مانع غالب يسلب ارادته وهذا المانع اما هو القدر المحتوم المسمى عند البعض بالعجز الطبيعي أو هو الاستبداد المشؤم . على ان القدر قد يصدم سير الترقي لمحة ثم يطلقه فيكرّ راقياً . وأما الاستبداد فانه يقلب السير من الترقي

الى الانحطاط . من التقدم الى التأخر . من النماء الى الفناء ويلازم الامة اللازمة الغريم الشحيح ويفعل فيها دهراً طويلاً أفعاله التي تقدم وصف بعضها في الابحاث السابقة . افعاله التي تبلغ بالامة حطة العجماوات فلا يعود يهمها غير حفظ حياتها الحيوانية فقط بل تكون حياتها هذه الدنيئة ايضاً مباحة للاستبداد اباحة ظاهرة أو خفية

وقد يبلغ فعل الاستبداد بالامة ان يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقي الى طلب التسفل بحيث لو دفعت الى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الاجهر من النور واذا الزمت بالحرية تشقى وربما تفنى كالبهائم الاهلية اذا أطلق سراحها . وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الامة فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها

وقد توصف حركة الترقي والانحطاط في الشؤون الحيوية للانسان بانها من نوع الحركة الدودية التي تحصل بالاندفاع والانقباض . وذلك ان الانسان يولد وهو أعجز حراكاً وادراكاً من كل حيوان . ثم يأخذ في السير تدفعه « الرغائب » النفسية والعقلية وتقبضه « الموانع » الطبيعية والمزاحمة . وهذا سرّ ان

الانسان يتنابه الخير والشر وهو سرّ ما ورد في القرآن الكريم من ابتلاء الله الناس بالخير وبالشر . وهو معنى ما ورد في الاثر من ان الخير مربوط بذيل الشر والشر مربوط بذيل الخير . وهو المراد من أقوال الحكماء نحو . على قدر النعمة تكون النقمة . على قدر الهمم تأتي العزائم . بين السعادة والشقاء حرب سجال . العاقل من يستفيد من مصيبته والكيس من يستفيد من مصيبته ومصيبة غيره

اذا تقرر هذا فليعلم ايضاً ان سبيل الانسان هو الى الرقي ما دام جناحا الاندفاع والانقباض فيه متوازنين كتوازن الايجابية والسلبية في الكهربائية . وسبيله القهقري ان غلبته الطبيعة أو المزاحمة . ثم ان الاندفاع ان غلب فيه العقل النفس كانت الوجهة الى الحكمة . وان غلبت النفس العقل كانت الوجهة الى الزيغ . اما الانقباض فالمعتدل منه هو السائق للعمل . والقويّ من مهلك مسكن للحركة . والاستبداد المشؤوم الذي نبحث فيه هو قابض ضاغط . مسكن والمبتلون به هم المساكين

أسراء الاستبداد ولا سيما الفقراء منهم كلهم مساكين

لا حراك فيهم فيعيشون منحطين في الادراك منحطين في الاحساس منحطين في الاخلاق . وما اظلم توجيه اللوم عليهم بغير لسان الارشاد . وقد أبدع من شبه حالتهم بدود تحت صخرة . وما أليق بالائمين ان يكونوا مشفقين فيسعوا في رفع الصخرة ولو حثاً بالاظافر ذرةً بعد ذرة

قد أجمع الحكماء على ان اهم مايجب عمله على الآخذين بيد الامم . الذين فيهم نسمة مروءة وشرارة حمية . الذين يعرفون ماهي وظيفتهم بازاء الانسانية ان يسعوا في رفع الضغط عن القول لينطلق سبيلها في النموّ فتمزّق غيوم الاوهام التي تمطر المخاوف

* * *

وعلى ذكر اللوم الارشادي لاح لي ان اصوّر الرقي والانحطاط في النفس وكيف ينبغي للانسان العاقل ان يعاني ايقاظ قومه وكيف يرشدهم الى انهم خلقوا لغير ماهم عليه من الصبر على الذل والسفالة . فيذكرهم ويحرّك قلوبهم ويناجيهم بنحو الخطابات الآتية

« يا قوم ينازعني والله الشعور هل موفقي هذا في جمع

حي احييه بالسلام ام انا أخاطب اهل القبور فاحييهم بالرحمة
ياقوم لستم باحياء عاملين ولا اموات مسترحين بل انتم بين
بين في برزخ يسمى التنبت ويصح تشبيهه بالنوم »

« ياقوم هداكم الله ماهذا الشقاء المديد والناس في نعيم
مقيم وعز كريم أفلا تنظرون . وما هذا التأخر وقد سبقتكم
الاقوام ألوف مراحل حتى صار مابعد ورائكم وراء أفلا
تتبعون . وما هذا الانخفاض والناس في أوج الرفعة
أفلا تغارون »

« ياقوم وقاكم الله من الشر انتم بعيدون عن مفاخر
الابداع وشرف القدوة مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل
فكر وعمل . وبداء الحرص على كل عتيق . فلماذا تقلدون
اجدادكم في الخرافات والامور السافلات ولا تقلدونهم في
محامدهم . أين الدين أين التربية أين الاحساس أين الغيرة أين
الحسارة أين الثبات أين الرابطة أين المنعة أين الشهامة أين
النخوة أين الفضيلة أين المواسات . هل تسمعون ام انتم نائمون »

ياقوم عافاكم الله الى متى هذا النوم ومتى هذا
التقلب على فراش البأس ووسادة اليأس . أنتم مفتحة عيونكم

ولكنكم تيام لكم ابصار ولكنكم لاتنظرون . وهكذا
لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . لكم
سمع وشم وذوق ولمس ولكنكم لا تشعرون بها ماهي اللذائذ
حقاً وما هي الآلام . ولكم رؤوس كبيرة ولكنها مشغولة
بتزعجات الاوهام والاحلام ولكم نفوس ولكن لا تعرفون
لها قدراً ومقاماً »

« يا قوم قاتل الله الغباوة فانها تملأ القلوب رعباً من لا
شيء وخوفاً من كل شيء وتفعم الرؤوس تشويشاً وسخافة
أليست هي الغباوة جعلتكم كأنكم قد مسكم الشيطان فتخافون
من ظلكم وترهبون من قوتكم وتجيشون منكم عليكم جيوشاً
ليقتل بعضكم بعضاً . تتراموا على الموت خوف الموت وتحسبون
طول العمر فكركم في الدماغ ونطقكم في اللسان واحساسكم
في الوجدان خوفاً من ان يحبس الظالمون أرجلكم أياماً »

« يا قوم اعيذكم بالله من فساد الرأي وضياع الحزم وفقد
الثقة بالنفس وترك الارادة للغير . فهل ترون اثراً للرشد في
ان يوكل الانسان عنه وكيلاً ويطلق له التصرف في ماله واهله
والتحكم في حياته وشرفه والتأثير على دينه وفكره مع تسليف

هذا الوكيل العفو عن كل عبث وخيانة واسراف واتلاف أم ترون ان هذا نوع من الجنة به يظلم الانسان نفسه . بلى . ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون »

«ياقوم شفاكم الله قد ينفع القوم الانذار واللوم وأما غداً اذا حل القضاء فلا يبقى لكم غير التندب والبكاء فالى متى هذا التخادع والى متى هذا التواني . والى متى هذا التواكل هل طاب لكم هذا الذل وتودون لو تصحبونه في القبور . أم عاهدتم أن تصلوا غفلة الحياة بالممات فلا تفيقوا من أنفسكم السبات قبل صباح يوم النشور »

« ياقوم رحمكم الله ماهذا الحرص على حياة تعيسة دنيئة لاتملكونها ساعة . ما هذا الحرص على الراحة الموهومة وحياتكم كلها تعب ونصب . هل لكم في هذا الصبر نخر أو لكم عليه اجر . كلا والله ساء ما توهمون ليس لكم الا القهر في الحياة وقبيح الذكر بعد الممات لانكم ما أفدتم ولا استفدتم من الوجود بل أتلفتم ما ورثتم عن السلف وصرتم بئس الواسطة للخلف »

« يا قوم حماكم الله قد جاءكم المستمتعون من كل حدب

ينسلون فان وجدوكم ايقاظاً عاملوكم كما يتعامل الجيران ويجامل الاقران وان وجودكم رقوداً لا تشعرون سلبوا اموالكم وزاحموكم على ارضكم وتحيلوا على تذليلكم وربطكم واتخاذكم كالانعام . وعندئذ لو اردتم حراكاً لا تقوون وتجدون في وجوهكم الابواب موصدة والمسالك مسدودة لانجاة ولا مخرج »

« باقوم هوّن الله مصابكم تشكون من الجهل ولا تنفقون على التعليم نصف ما تصرفون على التدخين وتشكون من الحكام وهم اليوم منكم فلا تسعون في اصلاحهم . تشكون فقد الرابطة ولكم روابط من وجود لا تفكرون في احكامها . تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل . هل ترجون الصلاح وانتم يخادع بعضكم بعضاً ولا تخدعون الا انفسكم . ترضون بادنى المعيشة عجزاً تسمونه قناعة وتهملون شؤونكم تهاوناً تسمونه توكلاً تموهون عن جهلكم الاسباب بقضاء الله وتدفعون عار المسببات بعطفها على القدر الا والله ما هذا شأن البشر

« يا قوم سامحكم الله . لا تظلموا الاقدار وخافوا غيرة المنعم الجبار . ألم يخلقكم احراراً لا يثقلكم غير النور والنسيم فأبيتم الا تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الاقوياء .

لو شاء كبيركم ان يحمل صغيركم كرة الارض لخفى له ظهره ولو شاء يركبه لطأطأ له رأسه ماذا استفدتم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله وماذا تؤملون من تقبيل الاذيال والاعتاب أليس منشأ هذا الصغار والهوان هو ضعف ثقتكم بانفسكم كانكم عاجزون عن تحصيل ما تقوم به الحياة وحسب الحياة اقيمات من نبات تقمن ضلع ابن آدم وقد بذلها الخلاق لاضعف الحيوان . فما بال الرجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذي لا ينال من الكبير مراده الا بالتذلل والبكاء اوموضع الشيخ الفاني الذي لا ينال حاجته الا بالتملق والدعاء »

« يا قوم رفع الله عنكم المكروه ماهذا التفاوت بين افرادكم وقد خلقكم ربكم اكفاء في البنية اكفاء في القوة اكفاء في الطبيعة اكفاء في الحاجات لا يفضل بعضكم بعضاً الا بالفضيلة لا ربوبية بينكم ولا عبودية والله ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم . ولو درى الصغير بوهمه العاجز بوهمه . مافي نفس الكبير من الخوف منه لزال الاشكال وقضى الامر الذي فيه تختلفون وفيه تشقون »

« يا قوم جعلكم الله من المهتدين . كان أجدادكم

لاينحنون الا ركوعاً لله وانتم تسجدون لتقبيل ارجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان . واجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين اعزاء وانتم احياء معوجة رقابكم اذلاء البهائم تودّ لو تنتصب قاماتها وانتم من كثرة الخضوع كادت تصير ايديكم قوائم . النبات يطلب العلوّ وانتم تطلبون الانخفاض . لفظتكم الارض لتكونوا على ظهرها وانتم حريصون على ان تنغرسوا في جوفها . فان كانت هذه بغيتكم فاصبروا قليلاً لتناموا فيها طويلاً »

« يا قوم الهمكم الله الرشد . متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الارض الى السماء انظاركم وتميل الى التعالي نفوسكم فيستقل كل انسان منكم بذاته يملك ارادته واختياره ويثق بربه ونفسه لايتكل على احد من خلق الله اتكال الغاصب على مال الغافل او الكلّ على سعي العامل بل يعتمد على المبادلة والتعاوض وحينئذ يظهر بينكم حكم التضامن والتقاضي فتصيرون بنعمة الله اخواناً »

« يا قوم ابعد الله عنكم المصائب وبصركم بالعواقب ان كانت المظالم غلت ايديكم وضيقت انفاسكم حتى صغرت نفوسكم

وهانت عليكم هذه الحياة واصبحت لاتساوي عندكم الجد والجهد وامسيتم لاتبالون اتعيشون ام تموتون . فهلا تخبروني لماذا تحكمون فيكم الظالمين حتى في الموت . اليس لكم من الخيار ان تموتوا كما تشاءون لا كما يشاء الظالمون هل سلب الاستبداد ارادتكم حتى في الموت . كلا والله : ان انا احببت الموت اموت كما احب لئيماً او كريماً حنفاً او شهيداً فان كان الموت ولا بد فلماذا الجبانة وان اردت الموت فليكن اليوم قبل الغد وليكن بيدي لابيد عمرو . أليس

وطعم الموت في شيء حقير كطعم الموت في شيء عظيم

« ياقوم اناشدكم الله الا أقول حقاً اذا قلت انكم لا تحبون الموت بل تحرصون على الحياة ولكنكم تجهلون الطريق فتهربون من الموت الى الموت ولو علمتم السبيل لعلمتم ان الهرب من الموت موت وطلب الموت حياة . وان الخوف من التعب تعب والاقدام على التعب راحة وان الحرية هي شجرة الخلد وسقياها قطرات من الدم المسفوح . والاسارة هي شجرة الزقوم وسقياها انهر من دم المخالق المخانيق

« ياقوم واعني منكم المسلمين قال نبيكم الكريم عليه

افضل الصلاة والتسليم (لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب) وقال (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده وان لم يستطع فبلسانه وان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان) »

وانتم تعلمون اجماع أئمة مذاهبكم كلها على ان انكر المنكرات بعد الكفر هو الظلم الذي فشى فيكم ثم قتل النفس ثم وثم وقد اوضح العلماء ان تغيير المنكر بالقلب هو بغض المتلبس به بغضاً في الله . بناء عليه فمن يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطر او يجامله ولو بالسلام يكون قد خسر اضعف الايمان وما بعد الاضعف الا العدم اي فقد الايمان والعياذ بالله

ولا اظنكم تجهلون ان كلمة الشهادة والصوم والصلاة والحج والزكاة كلها لا تغني شيئاً مع فقد الايمان . انما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر قياماً بعدات وتقليدات وهوسات تضيع بها الاموال والاوقات

بناء عليه فالدين يكلفكم ان كنتم مسلمين والحكمة تلزمكم ان كنتم عاقلين ان تأمروا بالمعروف وتنهو عن المنكر جهدكم ولا اقل في هذا الباب من ابطانكم البغضاء للظالمين

والفاسقين . وأظنكم اذا تأملتم قليلاً ترون هذا الدواء السهل المقدور لكل انسان منكم يكفي لانقاذكم مما تشكون. والقيام بهذا الواجب متعين على كل فرد منكم بنفسه . ولو اهمله كافة المسلمين ولو ان اجدادكم الاوّلين قاموا به . لما وصلتم الى ما انتم عليه من الهوان

« يا قوم واعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين. ادعوكم الى تناسي الاساآت والاحقاد . وما جناه الاباء والاجداد . فقد كفى ما فعل ذلك على ايدي المثيرين واجلكم من ان لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وانتم المتنورون السابقون . فهذه امم اوستريا وامريكا قد هداها العلم لطرائق شتى واصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الاداري . فما بالنا نحن الا نفتكر في ان نتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الاعجام والاجانب دعونا ياهؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفحصاء ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء. دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الاخرى فقط. دعونا نجتمع على كلمات سواء

الا وهي (فلتحي الامة فليحي الوطن فلتحي طلقاء اعزاء »

ادعوكم واخص منكم النجباء للتبصر والتبصير فيما اليه المصير اليس مطلق الغربي اخف استحقاراً لاخيه من الغربي. هذا الغربي قد اصبح مادياً لادين له غير الكسب فما تظاهره مع بعضنا بالاخاء الديني الا مخادعة وكذباً. هؤلاء الفرنسيس يطاردون اهل الدين ويعملون على انهم يتناسونه بناء عليه لا تكون دعواهم الدين في الشرق الا كما يغرّد الصياد وراء الاشباك . الغربي ارقى من الشرقي علماً وثروة ومنعة فله على الشرقيين اذا واطنهم السيادة الطبيعية . اما الشرقيون فيما بينهم فمتقاربون لا يتغابنون . الغربي يعرف كيف يسوس وكيف يتمتع وكيف يأسر وكيف يستأثر فمتى رأى فيكم استعداداً واندفاعاً لمجاراته او سبقه ضغط على عقولكم لتبقوا وراءه شوطاً كبيراً كما يفعل الروس مع البولونيين واليهود والتاتار، وكما هو شأن دول الاستعمار . الغربي مهما مكث في الشرق لا يخرج عن انه تاجر مستمتع فيأخذ فسائل الشرق ليغرسها في بلده التي لا يفتأ يفتخر برياضها ويحنّ الى ارباضها

قد مضى على الهولنديين في الهند وجزائرها وعلى الروس

في قازان مثل ما أقمنا في الاندلس ولكن ماخدموا العلم والعمران بعشر ماخدمناهما . ودخل الفرنساويون الجزائر منذ سبعين عاماً ولم يسمحوا بعد لاهلها بجريدة واحدة تقرأ نرى الانكليزي في بلادنا يفضل قديد بلاده وسمك بحاره على طري لحمنا وسمكنا فهلا والحالة هذه تبتصرون يا أولى الالباب

* * *

وانت ايها الشرق الفخيم رعاك الله . ماذا دهاك ماذا اقعدك عن مسراك . أليست أرضك تلك الارض ذات الجنان والافنان ومنبت العلم والعرفان . وسماؤك تلك السماء مصدر الانوار ومهبط الحكمة والاديان . وهواؤك ذاك النسيم العدل لا العواصف والضباب . وماؤك ذاك العذب الفدق لا الكدر ولا الاجاج

رعاك الله يا شرق . ماذا اصابك فاخل نظامك والدهر ذاك الدهر ما غير وضعك ولا بدل شرعه فيك . ألم تزل مناطقك هي المعتدلة وبنوك هم الفائقون فطرة وعدداً . اليس نظام الله فيك على عهده الاول ورابطة الاديان في بنيك

محكمة قوية مؤسسة على عبادة الصانع الوازع . أليست معرفة المنعم حقيقة راهنة أشرقت فيك شمسها ايدت بها عز النفس واحكمت بها حب الوطن وحب الجنس .

رعاك الله يا شرق . ماذا عراك وسكن منك الحراك ألم تزل ارضك واسعة خصبة . ومعادنك وافية غنية . وحيوانك رابياً متناسلاً . وعمرانك قائماً متواصلا . وبنوك على ما ريتهم اقرب للخير من الشر أليس عندهم الحلم المسمى عند غيرهم ضعفاً في القلب وعندهم الحياء المسمى بالجبانة وعندهم الكرم المسمى بالاتلاف وعندهم القناعة المسماة بالعجز وعندهم العفة المسماة بالبلاهة . وعندهم المجاملة المسماة بالذل . نعم ما هم بالسالمين من الظلم ولكن فيما بينهم ولا من الخداع ولكن لا يفتخرون به ولا من الاضرار ولكن مع الخوف من الله

رعاك الله يا شرق . لا نرى من غير الدهر فيك ما يستوجب هذا الشقاء لبنيك ويستلزم ذلهم لبني اخيك فلماذا قد اصبحت اذا انقطع عنك مدد اخيك بمصنوعاته يبقى ابناؤك عراة حفاة في ظلام بل يمنيهم فقد الحديد بالرجوع الى العصر النحاسي بل الحجري الموصوف بعصر التعفين

رعاك الله يا شرق . بل رعى الله اخاك الغرب العائل بنفسه والعائل فيك وقاتل الله الاستبداد بل لعن الله الاستبداد المانع من الترقي في الحياة المنحط بالامم الى اسفل الدركات . ألا بعداً للظالمين

رعاك الله يا غرب . وحياك وبياك . قد عرفت لاخيك سابق فضله عليك فوفيت وكفيت واحسنت الوصاية وهديت وقد اشتدّ ساعد بعض اولاد اخيك فهلا ينتدب بعض شيوخ اجرارك لاعانة انجاب اخيك على هدم ذاك الشور سور الشؤوم والشرور ليخرجوا باخوانهم الى ارض الحياة ارض الانبياء الهداة فيشكرون فضلك والدهر مكافأة

يا غرب لا يحفظ لك الدين غير الشرق ان دامت حياته بحريته . وفقد الدين يهددك باخراب القريب فماذا اعددت للفوضيين اذ صاروا جيشاً جراراً هل تعد لهم المواد المتفرقعة وقد جاوزت انواعها الالف ام تعد لهم الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصبيان

يا قوم واريد بكم شباب اليوم رجال الغد شباب الفكر رجال الجد اعيذكم من الخزي والخذلان بتفرقة الاديان

واعيذكم من الجهل جهل الدينونة لله وهو سبحانه ولي السرائر والضمائر ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة

اناشدكم يا ناشئة الاوطان ان تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قواهم واسالكم عفوهم من العتاب والملام لانهم مرضى مبتلون مثقلون بالقيود ملجمون بالحديد يقضون حياة خير ما فيها انهم آباؤكم

قد علمتم يا نجباء من طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جملاً كافية للتأمل والتدبر فاعتبروا بنا واسالوا الله العافية . نحن الفنا الادب مع الكبير ولو داس رقابنا . الفنا الثبات ثبات الاوتاد تحت المطارق . الفنا الانقياد ولو الى المهالك . الفنا ان نعتبر التصاغر ادباً والتذلل لطفاً والتملق فصاحة واللكنة رزانة وترك الحقوق سماحة وقبول الاهانة تواضعاً والرضا بالظلم طاعة ودعوى الاستحقاق غروراً والبحث عن العموميات فضولاً ومدّ النظر الى الغد املاً طويلاً والاقدام تهوراً والحمية حماقة والشهامة شراسة وحرية القول وقاحة وحرية الفكر كفراً وحب الوطن جنوناً

اما انتم حماكم الله من السوء فنرجو لكم ان تنشأوا على غير ذلك .

ان تنشأوا على التمسك بأصول الدين دون اوهام المتفننين فتعرفوا قدر نفوسكم في هذه الحياة فتكرمونها وتعرفوا اقدار واحكم وانها خالدة تثاب وتجزى وتتبعوا سنن النبيين فلا تخافون غير الصانع الوازع العظيم . ونرجو لكم ان تبنوا قصور فخاركم على معالي الهمم ومكارم الشيم لا على عظام نخرة . وان تعلموا انكم خلقتم احراراً لتموتوا كراماً فاجهدوا ان تحيوا تلكما اليومين حياة رضية يتسنى فيها لكل منكم ان يكون سلطاناً مستقلاً في شؤونه لا يحكمه غير الحق . وشريكاً اميناً لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء . وولداً باراً لوطنه لا يخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله . ومحباً للانسانية يعلم على ان خير الناس انفعهم للناس . يعلم ان الحياة هي العمل ووباء العمل القنوط . والحياة هي الامل ووباء الامل التردد . ويفقه ان القضاء والقدر هما عند الله ما يعمله ويمضيه وهما عند الناس السعي والعمل . ويوقن ان كل اثر على ظهر الارض من عمل اخوانه البشر فلا يتخيل في نفسه عجزاً ولا يتوقع الا خيراً وخير الخير ان يعيش حرا او يموت

يا قوم جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد . هذا خطابي.

اليكم فيما هو الترقي وما هو الانحطاط فان وعيتم ولو شذرات فيا بشراي والسلام عليكم والافياضياع الانفاس وعلى الرفاة السلام

***

الاستبداد الذي يبلغ في الانحطاط بالامة الى غاية أن تموت ويموت معها كثير الشواهد في قديم الزمان وحديثه. أما بلوغ الترقي بالامم الى المرتبة القصوى السامية التي تليق بالانسانية فهذا لم يسمح الزمان حتى الآن بأمة تصلح مثالاً له حيث لم توجد أمة حكمت نفسها برأيها العام حكماً لا يشوبه نوع من الاستبداد ولو باسم الوقار والاحترام أو بنوع من الاغفال ولو ببذر الشقاق الديني أو الجنسي بين الناس فكأن الحكمة الالهية لم تزل ترى البشر غير متأهلين لنوال سعادة الاخوة العمومية بالتحابب بين الافراد والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات. نعم وجد للترقي القريب من الكمال بعض أمثال قليلة في القرون الغابرة كالجمهورية الثانية للرومان وكعهد الخلفاء الراشدين وكالازمنة المنقطعة في عهد بعض الملوك المنظمين لا الفاتحين مثل انيشروان وعبد الملك الاموي ونور الدين الشهيد وبطرس الكبير . وكبعض الجمهوريات

الصغيرة والممالك الموفقة لاحكام التقييد الموجودة في هذا الزمان واني أقتصر على وصف منتهى الترقي الذي وصلت اليه تلك الأمم وصفاً اجمالياً وأترك للمطالع أن يوازن بينها ويقيس عليها درجات سائر الأمم

وربما يستريب في ذلك المطالع المولود في أرض الاستبداد الذي لم يدرس أحوال الامم في الوجود ولا عتب عليه فانه كالمولود أعمى لايدرك للمناظر البهية معنى

قد بلغ الترقي في الاستقلال الشخصي في ظلال الحكومات العادلة لان يعيش الانسان المعيشة التي تشبه في بعض الوجوه ماوعدته الاديان لاهل السعادة في الجنان حتى ان كل فرد يعيش كانه خالد بقومه ووطنه وكانه أمين على كل مطلب

(١) أمين على السلامة في جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لاتغفل عن محافظته بكل قوتها في حضره وسفره

(٢) أمين على الملذات الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة في الشؤون العامة المتعلقة بالترويضات الجسمية والنظرية والعقلية حتى يخال له ان تسهيل الطرقات والتزينات البلدية

والمتنزهات والمنتديات والمدارس والمجامع ونحو ذلك قد وجدت كلها لاجله خاصة

(٣) أمين على الحرية كانه خلق وحده على سطح هذه الارض فلا يعارضه معارض فيما يخص شخصه من دين وفكر وعمل

(٤) أمين على النفوذ كانه سلطان عزيز فلا ممانع له ولا معاكس في تنفيذ مقاصده النافعة في الامة التي هو منها

(٥) أمين على المزية كانه في أمة يساوي جميع أفرادها منزلة وشرفاً فلا يفضل هو على أحد ولا يفضل أحد عليه الا بمزية سلطان الفضيلة فقط

(٦) أمين على العدل كانه هو القابض على ميزان الحقوق فلا يخاف تطفيفاً وهو المثمن فلا يحذر بخساً وهو المطمئن على انه اذا استحق أن يكون ملكاً صار ملكاً واذا جنى جناية نال جزاءه لامحالة

(٧) أمين على المال والملك كأن ما أحرزه بوجهه المشروع قليلاً كان أو كثيراً قد خلقه الله لاجله فلا يخاف عليه كما انه تقلع عينه ان نظر الى مال غيره

(٨) أمين على الشرف بضمان القانون بنصرة الامة ببذل الدم فلا يرى تحقيراً الا لدى وجدانه ولا يعرف طعماً لمرارة الذل والهوان والصغار

وقد يبلغ الترقي في التركيب بالعائلة والعشيرة أن يعيش الانسان معتبرا نفسه عضواً حقيقياً من جسم . فالجسم الحي عند المتمدنين هو مجموع الامة . والانقسام الى عائلات وافراد هو من قبيل انقسام المدينة الى بيوت والبيوت الى مرافق وكما انه لابد لكل مرفق من وظيفة يصلح لها والا كان بناؤه عبثاً يستحق الهدم كذلك الافراد في الامم لابد أن يعد كل منهم نفسه لوظيفة في قيام حياة قومه . ولهذا يكون من لا يصلح لوظيفة أو لا يقوم بما يصلح له بل يريد أن يعيش كلا عليهم لا عن عجز طبيعي حقيراً يستحق الموت لا الشفقة لانه كالدرن في الجسم أو الزائد من الظفر يستحقان الاخراج والقطع ولهذا المعنى حرمت الشرائع السماوية الملاهي التي ليس فيها ترويض والسكر المعطل عن العمل والمقامرة والربا لانها ليسا من نوع العمل والتبادل فيه . وقد فضل الناس الكناس عن الحجام لان صنعته أنفع للجمهور

وهكذا صانع الخبز أفضل من ناظم الشعر

الانسان الحر مالك لنفسه تماماً ومملوكاً لقومه تماماً .

ومتى يبلغ ترقي التركيب في أمة لهذه المرتبة بحيث يصير كل فرد مستعداً لان يفتدي أمته بماله وروحه : فعندئذ تصبح الامة في غنى عن ماله وروحه

أما الترقي في العز بالعلم والمال فيتميز على باقي الترقيات تميز الرأس على باقي أعضاء الجسم فكما ان الرأس باحرازه مركزية العقل ومركزية أكثر الحواس تميز على باقي الاعضاء واستخدمها في حاجاته فكذلك الحكومات المنتظمة يترقى أفرادها ومجموعها في العلم والثروة فيكون لهم سلطان طبيعي على الافراد أو الامم التي انحط بها الاستبداد المشؤوم الى حضيض الجهل والفقر . بقي علينا بحث الترقي في الكمالات بالخصال والاثرة وبحث الترقي الذي يتعلق بالروح أي بما وراء هذه الحياة ويرقى اليه الانسان على سلم الرحمة والحسنات فهذه أبحاث طويلة الذيل ومنابعها حكميات الكتب السماوية ومدونات الاخلاق وتراجم مشاهير الامم

واكتفي بالقول في هذا النوع انه يبلغ بالانسان مرتبة

أن لا يرى لحياته أهمية الا بعد درجات : الاولى منها حياة أمته ثم حريته ثم شرفه ثم عائلته ثم ونم . وقد تشمل احساساته عالم الانسانية كله : قومه البشر ووطنه الأرض كما انه قد يترفع عن الامارة لما فيها من معنى الكبر وعن التجارة لما فيها من التمويه والتبذل فيرى الشرف كل الشرف في القلم ثم المحراث ثم المطرقة وخلاصة القول ان الامم التي أسعدها جدها لتبديد استبدادها نالت من الشرف الحسي والمعنوي مالا يخطر على فكر امراء الاستبداد . فهذه بلجيكا أبطلت التكاليف الاميرية برمتها مكتفية في نفقاتها بنماء فوائد بنك الحكومة . وهذه سويسره يصادفها كثيراً أن لا يوجد في سجونها محبوس . وهذه أمريكا أثرت حتى كادت تخرج الفضة من مقام النقد الى مقام المتاع . وهذه اليابان أصبحت تستنزف قناطير الذهب من أوربا وأمريكا ثمن امتيازات اختراعاتها وطبع مؤلفاتها

نعم وقد نالت أيضاً تلك الامم حظاً من الملذات الحقيقية التي لا تخطر على فكر الامراء كلذة العلم وتعليمه ولذة المجد والحماية ولذة الاسراء والبذل ولذة احراز الاحترام في القلوب

ولذة نفوذ الرأي الصائب الى غير هذه من الملذات الروحية وأما الامراء والجهلاء فلذاتهم مقصورة على مشاركة الوحوش الضارية في جعلها بطونها مقابر للحيوانات ومزابل للنباتات وعلى استفراغهم الشهوة كأن أجسامهم خلقت دملاً على أديم الارض وظيفتها توليد الصديد ودفعه

وأنفع مابلغه الترقي في البشر هو أحكامهم أصول الحكومات المنتظمة وبناؤهم سداً متيناً في وجه الاستبداد وذلك بجعلهم لاقوة فوق الشرع ولا نفوذ لغير الشرع والشرع هو حبل الله المتين . وبجعلهم قوة الشرع في يد الامة والامة لا تجتمع على ضلال . وبجعلهم المحاكم تحاكم السلطان والصعلوك على السواء وتكاد تحاكي في عدالتها المحكمة الالهية وبجعلهم مأموري الحكومة القائمين بالاعمال العمومية لا سبيل لهم على تعدي حدود وظائفهم كأنهم ملائكة لا يعصون أمراً وبجعلهم الامة يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها لا تغفل ولا تتسامح كما ان الله عز وجل لا يغفل عما يفعل الظالمون وهكذا لما اهتدوا لاصلاح شؤونهم نجاهم الله من الهلاك . هلاك الاستبداد . لانه تعالى شأنه لا يهلك

القرى بظلم وأهلها مصلحون

هـذا مبلغ الترقي الذي وصلت اليه الامم منـذ عرف التاريخ على انه لم يقم دليل الى الآن على ترقي البشر في السعادة الحيوية كما كانوا عليه في العصور الخالية حتى الحجرية حتى منـذ كانوا عراة يسرحون أسراباً . والآثار المشهودة لاتدل على أكثر من ترقي العلم والعمران وهما آلتان كما يصلحان للاسعاد يصلحان للاشقاء وترقيهما من سنة الكون التي أرادها الله تعالى لهذه الارض وبنيها ووصف لنا ماسيبلغ اليه ترقي زينتها وافتدار أهلها بقوله عز شأنه (حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلها حصيداً كان لم تغن بالامس) وهـذا يدل على ان الدنيا وبنيها لم يزالا في مقتبل الترقي لا كما يظن الخاملون الذين كانهم خلقوا أذى أو سدى

الاستبداد والتخلص منه

ليس لنا في هذا الباب مدرسة أعظم من التاريخ الطبيعي والعمومي ولا برهان أقوى من الاستقراء : ومن تتبعهما يرى

أن الانسان عاش دهراً طويلاً في حالة طبيعية بطوناً واسراباً يسوسه الشيوخ الأكثر خبرة ويقوده الاقوياء بنية . ثم عاش حيناً من الدهر في حالة بدوية عشائر وقبائل يسوسه شيوخ البطون والافخاذ تحت رئاسة أمير منفذ لما يقررون لابداخلهم في الرأي غالباً وهم يتبعون نظاماً بسيطاً ادارياً ولهم قواعد قليلة قضائية رائدها العداله الوجدانية أو النظام التقليدي . ولم يزل نصف الانسان على تلكما الحالتين الى الآن

والنصف الثاني من البشر أرادوا التوسع في المعيشة فسجنوا أنفسهم بجدران القرى والمدن فتوسعوا ولكن في الشقاء والذل لان أكثرهم لم يهتدوا حتى الآن للطريق المثلى في سياسة جمعياتهم . وهذا هو سبب تنوع أشكال الحكومات وعدم استقرار أمة على شكل مرضي عام : انما هي تقلبات على سبيل التجريب وبحسب تغلب أحزاب الاجتهاد أو أحزاب الاستبداد . وتقرير شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة في البشر وهو المعترك الاكبر لافكار الباحثين والميدان الذي قل في البشر من لايجول فيه على فيل من الفكر أو جمل من الجهل أو فرس من الفراسة أو على حمار من الحمق

حتى جاء الزمن الاخير فجال فيه انسان الغرب جولة المغوار المتنطي في التدقيق مراكب البخار فقرر قواعد أساسية في هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب وحصحص فيها الحق اليقين فصارت تعد من المقررات الاجماعية عند الامم المترقية: على ان هذه الامم لم تزل أيضاً منقسمة الى أحزاب سياسية يختلفون شيعاً في وجوه تطبيق أصول تلك القواعد وفروعها على أحوالهم الخصوصية . وهذه القواعد وان كانت قد صارت قضايا بديهية في الغرب لم تزل مجهولة أو غريبة أو منفوراً منها في الشرق . لانها عند الاكثرين منهم لم تطرق سمعهم وعند البعض لم تنل التفاتهم وتدقيقهم وعند آخرين لم تحز قبولاً لانهم ذوو غرض أو مسروقة قلوبهم أو في قلوبهم مرض . واني أطرح لتدقيق المطالعين رؤوس مسائل بعض المباحث التي تتعلق بها الحياة السياسية . وقبل ذلك اذكرهم بانه قد سبق في تعريف الاستبداد بانه هو الحكومة التي يوجد بينها وبين الامة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم . كما أستلفت نظرهم الى أنه لاعبرة بيمين من يتولى السلطة أياً كان ولا بعهده على مراعاة الدين والتقوى والحق

والشرف والعدالة ومقتضيات المصلحة العامة وأمثال ذلك من القضايا الكلية المبهمة التي تدور على ألسنة كل بر وفاجر . وما هي في الحقيقة الا كلام فارغ : لان المجرم لا يعدم تأويلاً ولأن من طبيعة القوة الاعتساف ولأن القوة لا تقابل الا بالقوة . ثم فلنرجع للمباحث التي أريد طرحها لتدقيق المطالعين وهي .

١ (مبحث ماهي الامة أي الشعب) هل هي ركام مخلوقات نامية أو جمعية عبيد لمالك متغلب . أم هي جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة

٢ (مبحث ما هي الحكومة) هل هي انسان وأعوانه يتسلطون على الرقاب والدماء والشرف والمال يفعلون مايشاؤون أم هي وكالة سياسية تقام من قبل الامة لاجل ادارة شؤونها المشتركة العامة

٣ (مبحث ماهي الحقوق العمومية) هل للحكومة صفة المالكية : أم صفة الامانة والنظارة على الاملاك العمومية مثل الاراضي والمعادن والانهر والسواحل والقلاع والمعابد والاساطيل والمعدات . ومثل حقوق المعاهدات والاستعمار

ومثل حقوق اقامة الحكومة وتأمين العدالة وتسهيل الترقي الاجتماعي وايجاد التضامن الافرادي : الى غير ذلك مما يحق لكل فرد أن يتمتع به وان يطمئن عليه

٤ (مبحث التساوي في الحقوق) هل للحكومة التصرف في الحقوق العامة المادية والادبية كما تشاء بذلاً وحرماناً . أم تكون الحقوق محفوظة للجميع على التساوي والشيوع أو موزعة على الفصائل والبلدان والصنوف والاديان بنسبة عادلة

٥ (مبحث الحقوق الشخصية) هل الحكومة تملك السيطرة على الاعمال والافكار . أم أفراد الامة أحرار في الفكر مطلقاً وفي الفعل مالم يخالف القانون الاجتماعي لانهم أدرى بمنافعهم الشخصية

٦ (مبحث نوعية الحكومة) هل الاصلح هي الملكية المطلقة من كل زمام . أم الملكية المقيدة وما هي القيود . أم الرياسة الانتخابية الدائمة مع الحياة أو الموقتة . وهل تنال بالوراثة أو العهد أو الغلبة وهل يكون ذلك كما تشاء الصدفة أم مع وجود شرائط الكفاءة وما هي تلك الشرائط وكيف يصير تحقيق وجودها وكيف يراقب استمرارها

٧ (مبحث ماهي وظائف الحكومة) هل هي ادارة شؤون الامة حسب الرأي والاجتهاد . أم تكون مقيدة بقانون موافق لرغائب الامة وان خالف الاصلح : واذا اختلفت الحكومة مع الامة في اعتبار الصالح والمضر فهل على الحكومة أن تعتزل الوظيفة

٨ (مبحث حقوق الحاكمية) هل للحكومة ان تخصص بنفسها لنفسها ماتشاء من مراتب العظمة ورواتب المال وتحابي من تريد بما تشاء من حقوق الامة وأموالها . أم يكون التصرف في ذلك كله اعطاء وتحديداً ومنعاً منوطاً بالامة

٩ (مبحث طاعة الامة للحكومة) هل للحكومة تكليف الانقياد المطلق . أم عليها الاعتناء بوسائل التفهم والاقناع ولو اجمالاً لتتأتى الطاعة باخلاص

١٠ (مبحث توزيع التكليفات) هل يكون وضع الضرائب مفوضاً لرأي الحكومة أم الأمة تقرر النفقات اللازمة وتعين موارد المال وترتب طرائق جبايته وحفظه

١١ (مبحث اعداد المنعة) هل يكون اعداد القوة بالتجنيد والتسليح استعداداً للدفاع مفوضاً لارادة الحكومة

اهمالاً أو اقلالاً أو اكثاراً أو استعمالاً على قهر الامة أو يحرص على أن يكون ذلك برأي الامة وتحت أمرها بحيث تكون القوة منفذة رغبة الامة لا رغبة الحكومة

١٢ (مبحث المراقبة على الحكومة) هل تكون الحكومة لا تسأل عما تفعل . ام يكون للامة حق السيطرة عليها لان الشأن شأنها فلها أن تنيب عنها وكلاء لهم حق الاطلاع على كل شيء وتوجيه المسؤولية على اي كان

١٣ (مبحث حفظ الامن العام) هل يكون الشخص مكلفاً بحراسة نفسه ومتعلقاته أم تكون الحكومة مكلفة بحراسته مقيماً ومسافراً حتى من بعض طوارئ الطبيعة بالحيلولة لا بالمجازاة والتعويض

١٤ (مبحث حفظ السلطة في القانون) هل يكون للحكومة ايقاع عمل اكراهي على الافراد برأيها اي بدون الوسائط القانونية . أم تكون السلطة منحصرة في القانون الا في ظروف مخصوصة وموقتة

١٥ (مبحث تأمين العدالة القضائية) هل يكون العدل ما تراه الحكومة . أم ما يراه القضاة المصون وجدانهم من كل

مؤثر غير الشرع والحق ومن كل ضغط حتى ضغط الرأي العام

١٦ (مبحث حفظ الدين والآداب) هل يكون للحكومة ولو القضائية سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين والجنسية واللغة والعادات والآداب العمومية على استعمال الحكمة ما أغنت عن الزواجر ولا تتداخل الحكومة في أمر الدين ما لم تنتهك حرمته

١٧ (مبحث تعيين الاعمال بقوانين) هل يكون في الحكومة من الحاكم الاكبر الى البوليس من يطلق له عنان التصرف برأيه وخبرته . أم يلزم تعيين الوظائف كلياتها وجزئياتها بقوانين صريحة واضحة لا تسوغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمة الا في حالات الخطر الكبير

١٨ (مبحث كيف توضع القوانين) هل يكون وضعها منوطاً برأي الحاكم الاكبر او رأي جماعة ينتخبهم لذلك . أم يضع القوانين جمع منتخب من قبل الامة لانهم ادرى بحاجاتهم وما يلائم طبائعهم وصوالحهم ويكون حكمه عاماً أو مختلفاً على حسب تخالف الاقوام وتغير الظرف والزمان

١٩ (مبحث ماهو القانون وقوته) هل القانون هو أحكام يحتج بها القوي على الضعيف . ام هو احكام تتساوى لديها كل طبقات الناس وله سلطان نافذ قاهر مصون من مؤثرات الاغراض والشفاعة والشفقة محترم عند الكافة مضمون الحماية من قبل كل افراد الامة

٢٠ (مبحث توزيع الاعمال والوظائف) هل يكون ذلك مخصوصاً باقارب الحاكم أو عشيرته أو مقربيه . أم توزع كتوزيع الحقوق العامة على كافة القبائل والفصائل ولو مناوبة مع ملاحظات الاهمية والعدد بحيث يكون رجال الحكومة أنموزجاً من الامة او هم الامة مصغرة : وعلى الحكومة ايجاد الكفاءة والاعداد ولو بالتعليم الاجباري

٢١ (مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم) هل يجمع بين سلطتين أو ثلاث في واحد . أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها باتقان ولا يجوز الجمع منعاً لاستحفال السلطة

٢٢ (مبحث الترقي في العلوم والمعارف) هل يترك للحكومة صلاحية الضغط على القول كي لايقوى نفوذ الامة

عليها . أم تحمل على توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائي عمومياً بالتشويق أو الاجبار ثم التوسيع مسهلاً . وجعل التعليم والتعلم حراً مطلقاً

٢٣ (مبحث التوسيع في الزراعة والصنائع والتجارة) هل يترك ذلك للنشاط المفقود في الامة . ام تلزم الحكومة بالاجتهاد في تسهيل مضاهات الامم السائرة لاسيما المزاحمة والمجاورة كيلا تهلك الامة بالحاجة لغيرها أو تضعف بالفقر

٢٤ (مبحث السعي في العمران) هل يترك ذلك لاهمال الحكومة أو انهماكها فيه . أم تحمل على اتباع الاعتدال المتناسب مع الثروة العمومية بدون التفات للتفاخر بالتزيينات البلدية الغير مفيدة مادياً

٣٥ (مبحث السعي في رفع الاستبداد) هل ينتظر ذلك من الحكومة ذاتها : ام نوال الحرية ورفع الاستبداد رفعاً لايترك مجالاً لعودته من وظيفة عقلاء الامة وسراتها

هذه خمسة وعشرون مبحثاً كل منها يحتاج الى تدقيق عميق . وتفصيل طويل وتطبيق على الاحوال والمقتضيات الخصوصية . وقد ذكرت هذه المباحث تذكرة للكتاب ذوي

الالباب وتنشيطاً للنجباء على الخوض فيها بترتيب اتباعاً لحكمة اتيان البيوت من أبوابها وان اقتصر على بعض الكلام فيما يتعلق بالمبحث الاخير منها فقط أعني مبحث السعي في رفع الاستبداد فاقول :

(١) الامة التي لايشعر كلها أو اكثرها بآلام الاستبداد لاتستحق الحرية

(٢) الاستبداد لايقاوم بالشدة انما يقاوم باللين والتدريج

(٣) يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد

هذه قواعد رفع الاستبداد وهي قواعد تبعد آمال الاسراء وتسر المستبدين لان ظاهرها يؤمنهم على استبدادهم . ولهذا أذكرهم بما قد انذرهم به (الفياري) المشهور في مثل هذا المقام حيث قال لايفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه فكم من جبار عنيد جند له مظلوم صغير . واني أقول ما من جبار قهار الا ويأخذه الله أخذ عزيز منتقم . ثم أقول

مبنى قاعدة كون الامة التي لايشعر اكثرها بآلام الاستبداد لاتستحق الحرية . أن الامة التي ضربت عليها الذلة والمسكنة حتى صارت كالبهائم أو دون البهائم لاتسأل قط عن

الحرية وقد تقوم على المستبد ولكن طلباً للانتقام من شخصه لا طلباً للخلاص من الاستبداد فلاتستفيد شيئاً انما تستبدل مرضاً بمرض كمغص بصداع . وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر فاذا نجحت لايغسل هذا السائق يداه الا بماء الاستبداد فلا تستفيد أيضاً شيئاً انما تستبدل مرضاً مزمناً بمرض حد وربما نال الحرية عفواً فكذلك لاتستفيد منها شيئاً حيث لا تلبث تلك الحرية ان تنقلب الى استبداد مشوف أشد وطأة كالمريض اذا انتكس

ومبنى قاعدة أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم بالحكمة والتدريج : هو أن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقي الامة في الادراك والاحساس وهذا لا يتأتى الا بالتعليم والتحميس . كما أن اقناع الفكر العام واذعانه الى غير مألوفه لايتأتى الا في زمن طويل لان العوام مهما ترقوا في الادراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية الا بعد التروي المديد وربما كانوا معذورين لانهم ألفوا ان لا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة الا الغش والخداع . ثم ان الاستبداد محفوف بأنواع القوات التي منها قوة الارهاب

وقوة الجند لاسيما اذا كان الجند غريب الجنس . وقوة المال وقوة الالفة على القسوة . وقوة رجال الدين . وقوة أهل الثروات . وقوة الانصار من الاجانب . فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يقابل بعصا الفكر العام . ومن طبع الفكر العام أنه اذا فار في سنة يفور في سنة واذا فار في يوم يفور في يوم بناء عليه يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعناد . الاستبداد لا ينبغي أن يقاوم بالعنف كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً على ان الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجاراً طبيعياً فاذا كان في الامة عقلاء يتباعدون عنها حتى اذا سكنت ثورتها نوعاً قضت وظيفتها فى حصد المتافقين يستعملون حينئذ الحكمة في توجيه الافكار نحو تأسيس العدالة وخير ماتؤسس يكون مع من لا عهد له بالاستبداد ولا علاقة له بالفتنة . العوام لا ينهيجون على المستبد غالباً الا عقب أحوال مخصوصة فورية وهي . أولا . عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه . ثانياً . عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوباً ولا يتمكن من الصاق

عار الغلب بخيانة بعض القواد . ثالثاً . عقب تظاهر المستبد باهانة الدين اهانة مصحوبة باستهزاء يستلزم حدة العوام رابعاً . عقب تضييق شديد عام مقاضاة لمال لا يجده حتى أواسط الناس . خامساً . في حالة مجاعة لا يرى الناس فيها مواساة ظاهرة من المستبد . سادساً . عقب مايستفز الغضب الفوري كتعرضه لناموس العرض أو حرمة الجنائز في الشرق وناموس القانون أو الشرف الموروث في الغرب سابعاً . عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قسم كبير من النساء في الاستنصار . ثامناً . عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الامة عدواً لشرفها الى غير ذلك من الامور المماثلة لهذا المستبد مهما كان غبياً لا تخفى عليه هذه المزالق ومهما كان عتياً لا يغفل عن اتقائها . كما ان هذه الامور يعرفها أعوانه ووزراؤه فاذا وجد منهم بعض يريدون له التهلكة يهورونه على الوقوع في احداها ويلصقونها به بشهادتهم عوضاً عن ابعادها عنه بالتمويه على الناس . ولهذا يقال ان رئيس وزراء المستبد أو رئيس قواده أو رئيس الدين عنده هم أقدر الناس على الايقاع به . وهو يداريهم تحذراً واذا

أراد اسقاط أحدهم يوقعه بغتة .

ومبنى قاعدة انه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد : هو أن معرفة الغاية ولو اجمالا شرط طبيعي : للاقدام على كل عمل : لكن المعرفة الاجمالية في هذا الباب لاتكفي مطلقاً : بل لابد من تعيين المطلب تعييناً واضحاً موافقاً لرأي الكل أو لرأي الاكثرية التي هي فوق الثلاثة ارباع عدداً أو قوة بأس والا فلا يتم الامر حيث اذا كانت الغاية مبهمة نوعاً يكون الاقدام ناقصاً نوعاً واذا كانت مجهولة بالكلية عند كل قسم من الناس أو مخالفة لرأيهم فهؤلاء ينضمون الى المستبد فتكون فتنة شعواء واذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط فتكون الغلبة في جانب المستبد مطلقاً

ثم اذا كانت الغاية مبهمة في الأول فلا بد أن يقع الخلاف في الآخر فيفسد العمل أيضاً وينقلب الى فتن صماء وانقسام مهلك . ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة واخلاص واشهارها بين الناس والسعي في اقناعهم واستحصال رضائهم بها بل حملهم على النداء بها وطلبها من عند أنفسهم . وهذا سبب عدم نجاح الامام علي ومن وليه ومن أئمة آل البيت

رضي الله عنهم ولعل ذلك كان منهم لاعن غفلة بل عن صعوبة المواصلات وفقد ان البوستات المنتظمة والمطبوعات اذ ذاك

والحاصل ان من الضروري تقرير شكل الحكومة التي يراد ويمكن أن يستبدل بها الاستبداد . وليس هذا بالامر الهين الذي تكفيه فكرة ساعات أو فطنة آحاد بل ليس هو بأسهل من الفكرة في ترتيب المقاومة . وهذا الاستعداد الفكري النظري لايكفي أن يكون مقصوراً على الخواص بل لابد من تعميمه ويبتدي ذلك بعد احساس الامة بالآم الاستبداد ولا شك ان الفرد المتحمس في شأن عمومي مثل محاربة الاستبداد يعدي العشرات والمئات وربما الالوف على حسب قوة براهينه . ثم لما يستفيض بين الامة البحث في القواعد الاساسية السياسية المناسبة لها بحيث يشغل ذلك أفكار كل طبقات الامة ويبقى تحت مخض العقول سنين وأعواماً حتى ينضج تماماً . وحتى يبتدئ ظهور التلهف الحقيقي على نوال الحرية في الطبقات العلياء والتمني في الطبقات السفلى وحتى يشعر المستبد بالخطر ويأخذ التحذر الشديد والتنكيل وحتى تحصل أو تستحصل الفرصة المناسبة . فحينئذ تكون

الامة قد استعدت طبيعياً لقبول أصول أن تحكم نفسها بنفسها وحينئذ لها الخيار ان شاءت تكلف المستبد ذاته لاستبدال أصول الاستبداد بالاصول المقررة المهيئة التي تطلبها وترى نجاحها فيها والمستبد في تلك الحال لا يسعه الا الاجابة طوعاً أو كرهاً . وهكذا يتم السير الطبيعي ولا مبدل لسنته فليتبصر العقلاء وليتق الله المغرورون ولا ييأس من رحمة الله عاقل غير خامل

واني أختم هذا البحث بان الله جلت حكمته قد جعل الامم مسؤولة عن أعمال حكمته عليها وهذا حق . فاذا لم تحسن أمة سياسية نفسها أذلها الله لامة أخرى تحكمها كما تفعل الشرائع باقامة القيم على القاصر أو السفيه وهذه حكمة ومتى بلغت أمة رشدها استرجعت عزها وهذا عدل . وهكذا لا يظلم الله الناس بل الناس هم أنفسهم يظلمون

﴿ تمت ﴾

كتابخانه مجلس شورای ملی ١٣٠٢